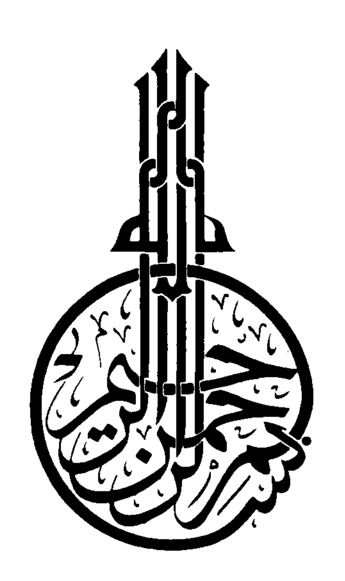
مشعل عبد العزيز الفلاحي

ابدأ كتابة حياتك



دمشق



ابدأ كتابة
حياتك

الطَّبعَة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

تُطلب جميع كتبنا من:
دار القلم ـ دمشق هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٤٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
الدار الشامية ـ بيروت هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١) ص.ب: ١١٣/٦٥٠١
www.alkalam-sy.com

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:
دار البشير ـ جدّة: ٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

إهداء

إلى كل من يهفو قلبه للمعالي! وتتوق نفسه للنجاح!

إلى كل راكض على الأرض يكتب فيها معالم الرحلة الخالدة

إلى كل واهم ظن أنه أدركه الركب

إلى القاعد المتأسّف على رحلة زمانه

إلى كل إنسان على وجه الأرض لا زال قلبه ينبض بالحياة

إلى العالم بأسره رجالاً ونساءً، شباباً وشيباً

هذه صفحات خطها القلب، قبل أن يلفظها اللسان

هذه روحي كتبها القلم رسوماً شاهدة على أمانيها العظام

إلى أغلى من على الأرض أمي وأبي وزوجي وأبنائي وإخواني وأصدقاء العمر..

أهدي إليهم روحي تحت عنوان: **ابدأ كتابة حياتك!!**

* * *

المقدمة

لأول وهلة أدرك أن القلم ينزع هواه من الروح، وينزف حبره من القلب!..

فلله ما أروع الهوى إذا سرى بالقلب حادياً للمعالي!..

أحلف يميناً مغلظة أن كل حرف مما ترى في هذه الصفحات نزعته الروح، واختُط من القلب قبل أن يجري على اللسان أو يكتبه البيان! كتبته لروحي أولاً مذكِّراً لها بالمعالي، وحادياً لها على الطريق، خشيت أن ترى الهلكى على ساحات الطرقات فتهن أو تتباطأ، فأخذتها بسوط العزيمة، ودفعتها بتاريخ الرجال..

وكتبته ثانياً إليك، وهل في الأمة أمل غيرك؟! أنت سر روحي التي خرجت في أسطر هذا الكتاب.. لولاك لما جرى الحرف على هذه الصفحات!..

كتبت إليك وأنا جازم أنني سأرحل بك إلى عالم آخر! سأعانق بك المجد، سأكتب بك التاريخ، وسأدون من خلال هذه

الفصول سيرتك كإنسان يخط فصول حياته واقعاً على وجه الأرض... هذه روحي بين يديك... كم من ليلة باتت تسامر أحلامها؟! وكم من يوم أضحت فيه تعانق آمالها؟!.. وهاهي في النهاية بين يديك..

والذي دفعني إلى قول ذلك أنني أشعر أنني قدمت لك روحي التي لا يلوي عنقها إلا كلمات الحرث، والتضحية، والعمل، والنجاح، والتفاؤل.. هذا سحرها الذي يخطف لبها، ويطير بها في عالم الأشواق!..

وكتبت إليك كذلك لأن بعض صفحات هذا الكتاب خرجت على الشبكة العنكبوتية من زمن فكتب طبيب من اليمن قائلاً: أنا أحد الأطباء باليمن، وجدت رسالتك فوجدت روحي في ثناياها، قل أحيتني من جديد! بعثتني من جديد! غيرت مجرى حياتي كلها... إن رسائلك بعثرت حياتي وأعادت ترتيبها من جديد. اهـ. وتحدث معي مشافهة أحد المدربين في منطقة الرياض عبر الجوال عند قراءته لتلك المقالة قائلاً: كل ما قلته وكتبته في مقالتك فأنا أعرفه، وعلى يقين به، وأقوله في جميع دوراتي التدريبية لكنني لا أدري إلى الآن.. في مقالتك سرٌّ غيّر مجرى حياتي، قلب مشاعري، أعاد ترتيب حياتي من جديد. اهـ.

ورسائل كثيرة من فلسطين، وتونس، والمغرب، ومصر، ودول الخليج، وبعض أفراد في بلاد الغرب كتبوا يقولون: اليوم أدركنا أنه في إمكاننا أن نحيا من جديد! ونخط عالم الأفراح في أرواحنا... اهـ.

فلمّا رأيت هذه الأفراح حرصت أن أدفع بها مجموعة بين يديك...

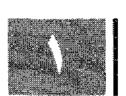
شكري الجزيل لأبي عبد الله عيسى جعدان العمري على تفضله بمراجعة الكتاب، والشكر موصول لكل من سدَّد، وساند، وشارك في الوصول بهذا الكتاب إلى هذه الصورة. داعياً للجميع بالتوفيق في الدارين...

وأخيراً: هذه هديتي إلى طلاب المعالي، هذه روحي إلى أرواحهم، وعالمي إلى عالمهم؛ فإن وجدتم فيها ما وجد إخوانكم ممن رأوا بعضها في زمن فائت فليس لي أمل سوى الدعاء.. والله المسؤول ألا يحرمني لذة نجاحكم في الدارين!..

بقلم/ مشعل بن عبد العزيز الفلاحي

مشرف تربوي بإدارة التربية والتعليم بمحافظة القنفذة
المملكة العربية السعودية.. محافظة القنفذة - حلي
mashal001@hotmail.com
mashal1001@maktoob.com





ابدأ صفحة جديدة!!

الناجحون لا تعيقهم أحداث الماضي ولو كانت كبيرة، ولا تثنيهم العراقيل ولو كانت كثيرة.. قم ـ أيها الإنسان ـ وابدأ صفحة جديدة من حياتك لتبدأ عالمك اليوم وليس عالم الأمس الحزين.. قم وابدأ حياتك من جديد.. هب أنك فشلت في دراسة! أو وقعت في جريمة! أو أخفقت في مسابقة! أو كنت فريسة لنافخ كير! لا عليك من كل ذلك.. فالجواد السريع هو أكثر الخيول عرضة للنكبات.. والرجل الطموح أكثر الناس عرضة لحسد الحاسدين، والناجحون كلهم رصيد تجارب مخفقة في بداية مشوارهم الطويل!..

قم.. إياك أن يأسرك الماضي بأحزانه، أو تعيقك نفسك بأحداثه..

قم ـ فالذين كفروا بمنهج الله تعالى على وجه الأرض في زمن من أعمارهم كتب الله تعالى لهم مساحة عريضة للعودة إليه، ومسح أوضار ذلك الإعراض، وتلك الخطيئة: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]

والذين غفلوا، وأخطؤوا فتح الله تعالى لهم باب العودة إليه: «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل**» .

والمسرفون على أنفسهم تقبّلهم الله تعالى مع عظم إسرافهم، وحجم خطيئتهم ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

فهل بقي لك عذر من أن تتقدم، وتكتب حياتك من جديد؟!..

قم فاسمع للغزالي فإنه يحدثك أنت فيقول لك: لا تعلّق نفسك على أمنية يلدها الغيب، فإن هذا الإرجاء لن يعود عليك بخير.. الحاضر القريب الماثل بين يديك، ونفسك هذه التي بين جنبيك، والظروف الباسمة أو الكالحة التي تلتف حواليك هي وحدها الدعائم التي يتمخّض عنها مستقبلك، فلا مكان لإبطاء، أو انتظار.. اهـ.

من قال لك: إن الإنسان بماضيه؟! من أقنعك بأن الناجحين صفحة لا سواد فيها؟!.. هذا وأمثاله يأسرونك في قيود الماضي! ويكبلونك بأوهام لا تاريخ لها! ألم تصلك رحمة ربك، وحنان مولاك بالسماء حين قال في الحديث القدسي: «**يا ابن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي. يا بن آدم! لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي. يابن آدم! لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة**». رواه الترمذي وحسنه الألباني.

قم فانفض هذا الهم الجاثم على قلبك! قم فكبّر من جديد، واصدح في العالمين.. قم لا يعيقك مثبط أو يستولي عليك شيطان! قم فالقيود مهما كانت قوية لاتصمد أمام همم الأقوياء، والتاريخ مهما كان مظلماً تضيئه شمس الرجال الشارقة! والرجال بتاريخ اليوم وليس بذكريات الأمس.. قم ومن وجدته أمامك يذكّرك بماضيك فاركله بقدم الواثق، وإذا أحسست به من خلفك يجرك إلى الوراء فلا تلتفت إليه، فإن قَرُب منك أو طمع فيك، فمد في خطوك فهو أحق بالتخلّف منك!..

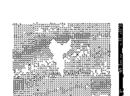
قم.. فقد قتل رجل مئة نفس ثم لما حملت نفسه أماني الرحمة، وخطت قدمه نحوها بعظمة العزيمة أوحى الله تعالى إلى الأرض الطيبة أن تتقارب ليُكتب في عداد الفالحين.. وربك فرح بتوبة مذنب أشد من فرح الفاقد لطعامه وشرابه

على أرض ضلّتْ فيها دابته فقال من شدة الفرح لما رآها: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك!» ورسولك ﷺ قد قال في لمسة حنان ورحمة: «**لو لم تذنبون لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم**».. فهل بقي لك عذر في التعلّق بأوهام الماضي؟! أو بقي لك عذر في العيش على آمال المستقبل الغائب المنتظر؟!..

* * *

إضاءة: «**كل ابن آدم خطّاء**» هذا قَدَرُ الإنسان.. وقَدَرُه الآخر: أن له الحرية المطلقة في التحرّر من ربق الخطأ مهما كان كبيراً!!



 عش في حدود يومك

صدقني - أيها الإنسان - إن أيامنا التي نعيشها هي أحلامنا التي ننتظرها! عش في حدود يومك ترى ربيع الأيام يزهر قبل حينه! لقد علّمنا رسولنا ﷺ هذا المعنى العظيم، وأبت أوقاتنا أن تسمح لنا لنتأمله ونرى فيه ملاح الحاضر الزاهي.. يقول ﷺ: «**من أمسى آمناً في سربه، معافًى في بدنه، عنده قوت يومه وليلته؛ فكأنما حيزت له الدنيا بأسرها**».. فهل بقي من الأحلام المنتظرة ما يمكن أن يخرج عن حدود معالم هذا القبس النبوي الكريم؟!..

أعجب شيء في الإنسان أنه يفكر في الغد قبل أن يأتي! فيبعثر بهذا التفكير أحلامه وأمانيه، ويكتب بذلك أقسى أيام العمر في حياته كلها.. إن الغد لم يأت بعد، وكم أنت أحق بالاحتفال بيومك أكثر من الانتظار لغدك!..

لست أريدك بارداً ضعيفاً همك يومك فحسب، لكنني أريد منك جزماً ألا يشغلك المستقبل بكواهله، ولا يهزك القادم بأحداثه فهو لا زال غيباً... أريدك أن تتمتع بيومك كأنه لا يوم غيره، فتجول نفسك في رحاب السعادة فترى فيها أروع ربيع الأعمار على الإطلاق!..

دعك من القلق على الرزق فقد أقفل رسولنا ﷺ باب الهم والتفكير في هذا الطريق بقوله في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**ثم يكتب أجله ورزقه وشقي أو سعيد**»

وهذا كله في تمام الثمانين الأولى من ميلادك؛ فلماذا تشغل نفسك بالغد القادم، وكل ما فيه مكتوب؟!..

لماذا ترهق نفسك بالتفكير في الغد ورسولك ﷺ قد قال: «**واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك.. رفعت الأقلام وجفت الصحف**».. إن الإيمان بهذه المعتقدات هو الذي يصوغ حياتك، ويعيد ترتيب أفكارك.

لقد علمنا نبينا ﷺ عيش اللحظة الآنية بصدق حين قال: «**إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا يموت حتى يغرسها؛ فليغرسها**»؛ فهل المسلم بحق سوى هذه الإيجابية في لحظته؟!.. فإذا كانت الساعة مع ما فيها يكتب لنا النبي ﷺ أن نكون فيها أقصر ما نكون على لحظات أعمارنا... فكيف بالغد الذي نوقف حياتنا على الغيب الذي يلده؟!.

عش لحظتك التي أنت فيها.. ولا يهمنك ما في الغد من أحداث.. فالغد لم يولد، ومن الحماقة أن تبتئس بمولود لم تره بعد!.

عش يومك فحسب، ألم تسمع إلى رسولك ﷺ وهو يصوّت في مسمعك: «**إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح**» أليس هذا قبس من الوحي؟!.. قم فشيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى في لحظات من يوم واحد كتب كتابه الواسطية وهو يلقى اليوم نفث بره، وآثار جهده! ورب صدقة في ظلام يوم أو ضحاه كتبت رضا الله تعالى إلى يوم تلقاه! وتبسمك في وجه أخيك صدقة؛ وهي لا تتجاوز لحظة لا تكاد تذكر في ثنايا يوم عابر!..

وصدق من قال: أتدري كيف يسرق من المرء عمره؟ يذهل عن يومه في ارتقاب غده، ولا يزال كذلك حتى ينقضي أجله ويده صفر من كل خير.. إننا

نتعلم بعد فوات الأوان أن قيمة الحياة في أن نحياها على وجه الحقيقة.. ثم لا يسعنا في النهاية إلا أمنية ذلك الإنسان في الوقت الضائع حين قال:ليتني كنت أدري ربيع أيامي لما انتظرت حتى حل بها الصيف الحار.. وشتت أوراقها الخريف الجاف!

إياك ثم إياك أن تجعل غيوم الماضي تغطي شمس الحاضر.. وإياك أن تتجاوز يومك الحاضر إلى الغد الغائب.. فإن هذا التطلع سرقة الغد من أحلام اليوم.

* * *

إضاءة: سر الحياة الحقيقية في عيش اللحظة والاستمتاع بها على أكمل وجه.



 كن واثقاً بنفسك!!

يستحيل في العالم اليوم كما هو مستحيل بالأمس أن تجد ناجحاً ثقته بنفسه مهزوزة أو مشكوك فيها.. يستحيل بل لا يتصوّر البتة أن ترى مخلوقاً كتب الله تعالى لاسمه صيتاً على وجه الأرض وهو يعاني أزمة ثقة!!.

دعني أقول لك: هب أن ثمة مواقف تعرضت لها في صغرك، أو دراستك، أو حياتك.. هب أن تربيتك الأسرية شكّلت عندك نوعاً من الضعف، أو فقدان الثقة بالذات، فذلك كله غير بعيد ولا مستحيل، وهو واقع يعيشه كثير من الناس.. لكن من الذي قال لك: إن هذه العراقيل لا تُحل؟ أو من أقنعك بأنها تراث وتاريخ لا يزول؟.. صدقني لو قرأت سير الناجحين كلهم أو جلست إليهم فسألتهم لما قال لك واحد منهم البتة: إنه خلق ناجحاً، ولا خالياً من عوائق البيئة والأسرة...لكن مع ذلك كله استطاعوا أن يمسحوا تلك النتوءات والآثار التي علقت بهم، وكتبوا لأنفسهم آثاراً تراها أنت اليوم كما رآها غيرك بالأمس..

الناجح وليد اليوم وليس نبات الأمس.. والتاريخ لا يعترف بالشاكين المتلمظين.. إنما يلوي عنقه ويرخي صفحاته للناجحين المتألقين!.

ثمة قضية هي في غاية الخطورة، وهي مكمن الفرق بين الناجحين وغيرهم؛ هي أن الناجح لديه ثقة مطلقة في نفسه وهو قادر على تحقيق الفلاح والنجاح على الأرض قبل لقاء الله تعالى في عرصات القيامة.. إن هذه الثقة هي السر

الكامن في العقول، وهي الوقود التي يشعل فتيل النفوس لبلوغ المعالي!.. صدقني لن يتحقق النجاح في حياتك ما لم تدلف إلى نفسك، إلى مشاعرك، إلى روحك من الداخل فتهتف بها إلى المعالي، وتكتب فيها أنه لا خيار غير هذه الأماني التي تشرق بأصحابها قبل حلول الفجر الصادق.

اعذرني إذا قلت لك: المخفقون الفاشلون أولئك كلهم أعداد لا تحصى أقنعوا أنفسهم بأنهم أقل من أن يتشوفوا إلى تاريخ حافل بالنجاحات... هؤلاء لم يقتنعوا بعد أنهم أهل لبلوغ المجد من أوسع أبوابه.. ولم يسعدوا بأنفسهم اليوم حتى تسعد بهم غداً.

لقد قال الأول بالأمس: أضخم المعارك تلك التي يقضيها الإنسان في أدراج نفسه.. وقال الثاني: عندما تبدأ المعركة بين المرء وبين نفسه فهو عندئذ شخص يستحق الذكر.. والذين يتوقون للنجاح، ويبحثون عنه، ويتوقون لبلوغه، ويسعون في إقناع نفوسهم بجديتهم وآثارهم القادمة هم فقط من يستطيعون الكتابة على جدار الزمن بأنهم قادمون بقوة...

تعال.. أعطني بعضاً من وقتك.. اسمح لي بدقائق من حياتك لأحدثك عن سير بعض من توسّع لهم التاريخ فكتبوا فيه بسطور من جد، ودونوا فيه بآثار من عزيمة، وليس عندي من يصلح للبداية أعظم من رسولك ﷺ حين نزل عليه الوحي وراح يبلغ رسالة الله تعالى إلى أهل الأرض.. وأراد الله تعالى أن يمضيه في سنن الكون.. ولا يميزه في هذا الطريق بشيء لأنه طريق مسلوك غداً لأتباع المرسلين... وتأبى سنن الله تعالى في الأرض إلا أن يكون لنبي الله تعالى في هذا الشأن ما لغيره من المصلحين من بعده إلى يوم الدين.. بدأ ﷺ رحلته، واستمر مناضلاً من أجلها ثلاثة وعشرين عاماً لقي في سبيل تلك الأهداف التي عاش من أجلها صنوف البلاء؛ فشج وجهه، وكسرت رباعيته، وسقط بجسده مراراً على أرض المعركة ولم تسقط همته ولا مرة واحدة... وظل يجوب الأرض

لتبليغ رسالة الله تعالى.. طرد من مكة وليس أمثل على مرارة ما لقي من أثر الفراق من وقوفه على الحزوّراء وقوله: «**والله إنك لأحب أرض الله إليّ ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت**».. وعوده من الطائف بعدما سالت قدماه دماءً من حجارتها.. وغمُّه الذي حل به حتى ما أفاق إلا بقرن الثعالب مهموماً مغموماً.. وبين ذلك شُدّ ثوبه على رقبته حتى أثّر فيها، ووضع سلى الجزور على رقبته حتى أعياها.. وظل يوم حنين بمفرده يجوب على بغلته لا أحد يعينه أو يقاوم معه.. ثم ماذا؟ لم يرحل حتى رأى عُبّاد الحجر والوثن خلف أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهم أجمعين يأتمون بسنته ويأتمرون بأمره. فلله در همته ما أعلاها! وما أشرفها! وما أسناها!..

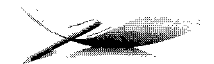
لكن إياك أن يأتي إليك مخذّل أو يتطرّق إليك صوت مهزوم فيقنعك بأن هذا رسول مؤيد، ولا وجه للمقارنة والمشابهة.. ألم يبلغك بعد أن ابن الأثير كتب كتابه (جامع الأصول) في أربعة عشر مجلداً وهو مقعد، وابن القيم دوّن (زاد المعاد) وهو في السفر، وهتفت همة ابن الجوزي به حتى طالع عشرين ألف مجلد وهو لا زال في أيام الطلب، واختار سفَّ الكعك على مضغه لتفاوت ما بينهما.. ألم يصل إلى سمعك أن ابن عقيل ألّف كتابه (الفنون) في ثمانمئة مجلد.. ولم تزل رغبة العلم بالإمام مالك حتى باع سقف بيته.. وكتب لك أديسون كلمته الشهيرة عن العبقرية «١٪ إلهام... و٩٩٪ عرق جبين».

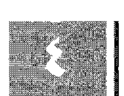
فإن لم تقنعك تلك النماذج كلها فلا أقل من أن تسمع لحديث محمد أحمد الراشد وهو يصوّت في أذنك بقوله: كن حمّالاً في السوق، لكن قرّر مع أول خطوة لك فيه أن تصير تاجراً أو عقارياً أو مدير شركة؛ فستصل بإذن الله.. المهم تصميمك. وقال في موضع آخر وهو يتحدَّث عن زرع الأمل في النفس بقوله: وفي هذا المنعطف يجفل الراهب فيدَّعي عجزاً، ويقول: تريد مني أن أكون فقيهاً وليس جدي مالكاً ولا الشافعي، وتطلبون أن أتغنّى بالشعر وما ولدني المتنبي ولا

البحتري، وتتمنون أن ألوك الفلسفة وليس جاري سقراط، فمن أين يأتي لي الإبداع، وقد قال النبي ﷺ: «**الناس كإبل مئة لا تكاد تجد فيها راحلة**»؟!.. فنقول: نعم، نريد، ونتمنى، ونظن، ونجزم، ولا وجه لاستضعافك نفسك، وقد أعطاك الله ذكاءً ونسباً، فلم لا تتعلّم السهر وتطلب الفصاحة. اهـ.

فإن تحركت نفسك للمعالي فتلك الأماني التي يهتف لها أمثالك! وإن لم يكن ذلك ففكّر بصدق في قدومك بين يدي الله تعالى يوم القيامة.. وأصدقاؤك وزملاؤك قد فتح الله تعالى عليهم فوصلوا إلى الفردوس الأعلى من الجنان، كم هي حسرتك في ساعة لا ينفع فيها الألم، ولا تفيد فيها الحسرات!..

فإن وجدت من نفسك إقبالاً للحاق القوم فتلك البغية التي أنت أهل لها.. وتأمل مع ذلك كله اللذة التي تجدها، والأفراح التي تشعر بها، والنعيم الذي ستجده في قلبك.. حينها لو طرت على وجه الأرض تعبيراً عن مشاعر اللذة لما كان ذلك غريباً على أمثالك.



 حياتك من صنع أفكارك!!

صدقني «أنت مجرد تفكيرك»... لا أدري إلى هذه الساعة التي أكتب فيها هذه الأحرف لماذا دائماً تضع نفسك في ساحة الاتهام والقصور؟ لماذا تحكم على نفسك بالتأخّر؟ لماذا هذه الأفكار البائسة تظل تلاحقك، وتكتب حرمانك من الخطوات الرائعة التي تنتظرك؟!.. تفكيرك هو الذي صنع منك تلك الروح الراكدة عن الآمال.. والراقدة على الأرض!

لقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك مقولة القائل: من الأمور الثابتة في الحياة: أنك إذا لم ترضَ إلا بالأفضل فسوف تحصل عليه. وتصوراتك عن نفسك هي التي تصنع الفرق..

وإذا لم تصدق ما أقول لك فإليك هذه القصة لأحد الناجحين: استقل دراجته في يوم من الأيام على أحد الطرق السريعة، وبينما هو في غاية السرعة على الطريق أدار رأسه إلى جانب الطريق لمشهد لفت نظره هناك.. وما لبث أن عاد بنظره إلى الطريق فإذا به أمام الحدث الهائل؛ شاحنة تقف في منتصف الطريق، فلم يجد بدّاً من الارتطام بها، ونتيجة لقوة الاصطدام فقد اشتعلت الدراجة على صاحبها.. ولم يخرج من غيبوبته إلا وهو على سرير المستشفى تغطي جسمه حروق مفزعة، ويعاني آلاماً مبرحة، وصعوبة في الحركة... وظل يخضع لعلاج داخل المستشفى زمناً طويلاً خرج بعده إلى الحياة من جديد، خرج وأجزاء من جسده مشوهة..

ثم تكرر عليه المشهد مرة أخرى لكن بصورة أكبر حيث تعرّض لحادث تحطّم طائرة كان أحد ركابها؛ فكانت النتيجة شلل في الجزء الأسفل من جسده... ومع ذلك كله لم تفلح هذه الأحداث مجتمعة في أن تثني ذلك الرجل عن تصوره عن نفسه، وثقته في ذاته؛ فقد تحول بعد ذلك الحادث إلى صورة من النشاط والجدية في حياته الشخصية حتى أصبح رجل أعمال مليونيراً، بل وصلت به هذه الثقة إلى أن رشّح نفسه لرئاسة بلاده على الرغم من تشوه صورته بشكل ملفت للنظر، وكان شعار حملته الانتخابية «أرسلوني إلى عاصمة بلادي ولن أكون مجرد وجه جميل هناك».

ومثله اليوم ـ في ظني ـ محمد الحسن المعشي؛ مشلول شلل رباعي ثم هو مع ذلك يتمتع بنفسية رائعة جدّاً تتفوّق على نفسيات كثير من الأصحاء معلم في المدرسة النظامية، ومعلم في حلقة التحفيظ، ومشرف على موقع إنترنت، وله طموحات لا يكتبها إلا الأصحاء، ليس بالشرط جسدياً لكنها بالضرورة روحيّاً ومعنويّاً.

وصدق ذلك الرجل حين جعل من السرقة مهنة، وكان يعيش على أموال الناس وجهودهم.. ولمّا قُبض عليه في لحظة من اللحظات سأله بعضهم: من هو يا ترى ذلك الشخص الذي سرقت منه أكثر شيء؟ فقال ذلك اللص جواباً يكتب بماء الذهب: أكثر رجل سرقت منه هو نفسي.. كان بمقدوري أن أكون رجل أعمال ناجح، وعضواً مساهماً في مجتمعي، ومع ذلك اخترت أن أكون لصّاً، وقضيت ثلثاً من حياتي كشخص راشد ناضج وراء القضبان. اهـ.

صدقني إن أعظم ما يقذف بك إلى المعالي هو صورتك عن ذاتك.. العجيب أن هذه النفس لن تجد مشجّعاً لها مثلك، ومع ذلك قد يشهد كثيرون أنك سبب في نجاحهم، وتفوقهم، وتميزهم، ونفسك كم كانت بحاجة إلى شيء من التشجيع والثقة لتحلّق في عالم الناجحين...

هب أنك مريض أو معاق أو ضعيف الذاكرة، أو حاولت مراراً ففشلت، هب أنك مجموعة من الأخطاء المتكررة.. ورغم كل ذلك فإنه يمكنك الآن، ومن هذه اللحظة بالذات أن تغيّر تلك الإيحاءات السلبية، وتكتب من خلالها روائع من النجاح.. قد قلت لك سابقاً: إنه لا يوجد ناجح على الأرض إلا وقد ذاق طعم الإخفاق، أو عاندته مشكلة حالت دون تحقيق النجاح مبكراً، لكن في النهاية طمس معالمها، وداس على ذكرياتها، وحلّق مع الراحلين إلى المعالي. كل ما أريده منك عبر هذه المساحة التي تقضيها معي في قراءة هذه الأسطر أن تطمس كل ما يتسلل إلى عقلك من ذكريات الماضي المشين.. وأن تبني في نفسك، وفي فكرك أنك قادر على بناء مستقبلك بالصورة التي تريدها أنت، وبالطريقة التي تختارها..

أجبني بصدق أليس بإمكانك الآن أن تضع زمناً للقراءة والتعلم؟! أليس بمقدورك الآن وفي هذه اللحظة أن تختار أخلاءك من الناجحين على وجه الأرض، وترتبط بهم ارتباط الراغب في المعالي؟! أليست الفرصة سانحة الآن لك أن تبدأ مشوارك نحو التميّز ببعض الوقت الذي تقضيه في أهم أهدافك؟!

هل ترى شيئاً مما سألتك مستحيلاً؟ إذاً فلماذا تنتظر؟! لماذا تميت نفسك والحياة تبتهج لك؟ لماذا تطمس معالم تميزك وهي أوضح من الشمس في رابعة النهار؟!..

لم يمنع عنترة سواده، ولم يحل ذلك بينه وبين بناء مجده، حين طمس كل المعالم التي يراها الناس عيباً يعيّر به، فإذا به يجعلها مجداً يفاخر به حين قال:

واختَرْ لِنَفْسِكَ منْزلاً تعْلو بِهِ ... أوْ مُتْ كريماً تَحْتَ ظلِّ القَسْطَلِ

فالموتُ لا يُنْجيكَ منْ آفاتِهِ ... حِصْنٌ ولو شيَّدتَهُ بالجنْدلِ

موْتُ الفتى في عِزَّةٍ خيْرٌ لهُ ... من أنْ يَبيتَ أسيرَ طرفٍ أكْحلِ

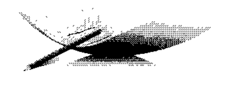
إنْ كُنْتُ في عددِ العبيدِ فَهمَّتي ... فوْقَ الثُّريَّا والسِّماكِ الأعْزلِ
أو أنكَرَتْ فُرْسَانُ عبْسٍ نِسْبَتي ... فسنانُ رُمحي والحُسامُ يُقرُّ لي
لا تَسْقني ماءَ الحياةِ بذلَّةٍ ... بلْ فاسْقني بالعزِّ كأس الحنْظلِ
ماءُ الحياةِ بذلَّةٍ كجَهنَّم ... وجهنَّمٌ بالعزِّ أطْيبُ منْزلِ

إن بإمكانك أن تبدأ.. كيف؟ لا تسأل أحداً.. في البداية ابدأ.. حاول.. ألحّ على الله تعالى في أن يفتح عليك طريق السعادة والتوفيق... وحاول.. ولا يضيرك كم هي محاولاتك.. لأنني أراك أقرب ما تكون إلى النجاح بعد هذا القرار..

وبإمكانك بعد الشهر الأول، أو العام الأول أن تهاتفني لتخبرني بمقدار الأفراح التي تخالج قلبك، واللذة التي تخامر عقلك... ولو عرفت هذه النتائج وذقتها لما وسعك إلا أن ترى الأفراح بين ناظريك!..

* * *

إضاءة: بمجرد إيمانك بذاتك وثقتك بها ستصبح إنساناً آخر!!..





٥ تجارب الناجحين!!

حدثتك فيما مضى عن الثقة بنفسك، والاعتداد بذاتك، وقلت لك ولا زلت أؤكّد عليك أن هذه الثقة هي الشرارة الأولى لبناء حياتك، وتحقيق آمالك، وصدقني كل الناجحين على بساط هذه الأرض يجتمعون في هذه الصفة لا يختلفون فيها البتة، ولك أن تقابل من تشاء منهم وتسألهم لترى صدق ما قلت لك عبر هذه المساحة التي كم أتمنى أن ترتوي منها لتكون في عداد المتميزين والناجحين.

وثمة أمر في غاية الأهمية لتعزيز الثقة بنفسك.. إنه لا يمكن لبشر على وجه الأرض أن يجعلك تشعر بالنقص والدون، ومتى ما استطاع أحدٌ أن يشعرك بذلك فستثبت لك الأيام أنك مجرد أداة مكّنت هؤلاء من بناء أمجادهم على ضفاف شخصيتك الضعيفة وتبعيتك المفرطة.. صدقني أنت ملك نفسك.. ولو اجتمع الناس كلهم على أمر لا تريده ما استطاعت تلك الجموع أن تقنعك بفكرة أو تحولك عن رأي.. إذاً فلماذا تضع نفسك مطية لآراء الآخرين؟!

لو تأملت في أحوال الناس، وتساءلت: من الذي يحظى بينهم بالتقدير، ويشار إليه بالبنان فيهم؟ لوجدته ذلك الإنسان الذي يتحدث عندما يريد، ويسكت عندما يريد، يقول رأيه وبكل شجاعة لا يتهيّب الخطأ، ولا يخاف النقد.. ثقته بنفسه تدفعه إلى أن يتحرك كيف يشاء، لا يجعل من الأوهام التي تكبل

كثيراً من الناس قيوداً له.. بل ينطلق متحرراً من كل قيد تفرضه بيئة الضعف بداعي الاحترام والتقدير..

ولو بحثت عن المشلول في حياة الناس، المرفوض في أفكارهم لكان ذلك الضعيف الذي يرى الحق والصواب ما يراه غيره، لا يبدي رأيه مخافة أن يكون نشازاً، هكذا دائماً لا تعرف له موقفاً متميزاً.. إن قال الناس قال.. وإن سكت الناس سكت.. ليس له رأي منفرد، ولا قول مخالف.. ومثل هذا حري بالناجحين الطامحين أن يكونوا أشد الناس نفوراً منه، ولو سألتك أنت: هل تشرف بهذا خلاً على واقع هذه الحياة؟ لكنت أشد الناس نفوراً منه وبعداً عنه...

إذا أردت أن تبني الثقة بنفسك فاقرأ قصص الناجحين، وكتب الذكريات، والسير الذاتية للناجحين فقط.. اجعل عينك على الأسطر الدقيقة التي تحكي مواقف صاحب الذكريات الإيجابية، وكيف كتب سيرته على واقع الأرض.. ودعك من الأسطر التي يسرد لك فيها أسرته وأين عاش، وكيف ولد.. فهذه من الزبد في مثل هذه السير.. قراءتك المتكررة في سير الناجحين تدفعك إلى عالمهم، وتحدوك إلى بلوغ آثارهم، والشرب من معينهم.. اقرأ وركّز على مواطن القدوة في تلك السير فهي التي تلهب قلبك، وترحل بك إلى عالم المتميزين!..

أعجبني أيما إعجاب قصة سردها عليّ أحد المتدربين في دورة تدريبية في عالمنا العربي، وكان صاحبنا حاضراً كأحد المتدربين يقول: كان من شروط المدرب أن تقفل الجوالات أثناء الدورة، ولا يسمح بحديث متدرب مع آخر بعد بداية البرنامج، وكانت الدورة مختلطة من الرجال والنساء، وبينما المدرب يقدم دورته إذ بإحدى المتدربات تتكلم في جوالها، فوقف المدرب وأنصت حتى انتهت من مكالمتها، ثم قال لها بصوت مرتفع: «إلى الخارج»، ثم نادى الفريق القائم على البرنامج وقال لهم: أعطوها مبلغ الدورة الذي دفعته.. يقول المتدرب: وانتظرنا هذا الموقف العصيب في حياة هذه المتدربة، فكانت

المفاجأة: وقفت فقالت: أنت أحق بالخروج مني.. أنت هنا موجود لنا، ولسنا نحن موجودون لك.. تقول: الدرس الذي تعلمته هذا المساء أن أمثالك ينبغي أن يمسحوا من قائمة المدربين؛ لأنك لا تستطيع أن تتعامل مع الناس؛ فكيف توجههم؟!.. لن أخرج هذا المساء لكنني أخبرك أنني لن أترك وسيلة إعلام، ولا مركز تدريب حتى أبين شخصيتك الزائفة.. وبيننا الأيام.. ثم قعدت، فارتج على المدرب وعَرِقَ وجلس وظل صامتاً زمناً طويلاً ثم أفاق معتذراً، متأسفاً، نادماً.. يقول الزميل: وفي أثناء الاستراحات لقيت هذه المرأة من الفريق العامل أروع عناية لمتدربة في برنامج..

قلت: وهكذا تصنع الثقة بأصحابها.. الثقة بنفسك تجعل الآخرين يشرفون بخدمتك، ويقومون لمجيئك، ذلك أنك تستحق هذا الإكرام وأكثر! الثقة بنفسك تجعل منك إنساناً آخرَ على وجه الأرض، والغالب والعادة أن المهزوم نفسيّاً أحق بالعطف من الإكرام والتبجيل..

الأشرطة السمعية يمكن أن تسهم في نماء هذه الثقة وتوسيع دائرتها، وفي المكتبات اليوم بعض من هذه الأشرطة.. يمكنك من خلال سيارتك أن تسمع ما يدفعك لمزيد من البناء والتقدم في حياتك.. إنني ولفترة من حياتي ليست بالقصيرة أسمع لهذه الأشرطة في الصباح الباكر وأنا متوجه إلى عملي، كم كانت هذه الأشرطة بمثابة الوقود في بعض الأحيان ليوم، وفي بعضها لأسبوع، وفي بعضها لأشهر.. ولا زلت مديناً لها بعد الله تعالى بالفضل في إذكاء روح الحماسة والثقة في نفسي..

يمكنك كذلك إذكاء هذا الجانب عن طريق مصاحبة الناجحين والمتميزين، فإن صحبتهم الشعلة التى لا تنطفئ في نفس الإنسان.. إن الناجحين نماذج حية يشعلون في نفسك نار الجدية بمجرد حديثهم، ويلهبون فيك مشاعر التميّز بأفعالهم.. ليتني أراهم كل يوم فهم الشمعة التي لا تنطفئ في قلبي إلى الأبد..

الناجحون الإيجابيون هم بلسم الحياة.. ونورها المشرق.. وضياؤها الجميل.. ليتني أسمعهم في كل وقت فهم شموع النفس، وضياء القلب، ونور العين لا حرمني الله إياهم فبهم تحلو الحياة إلى الأبد.

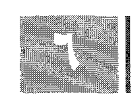
شيء أساسي يحتاجه من يريد أن يبني الثقة في نفسه؛ هو حرصه على حضور الدورات التدريبية فإنها شمعة أخرى في نفوس كثير من العطشى.. فكم من كلمة، أو لوحة، أو جملة أنارت طرقاً مظلمة.. ورسمت لوحة عريضة من التفاؤل في زمن اليأس؟!.. ومن جرب عرف، ومن ذاق استلذ..

إياك ثم إياك أن تخالط أو تعيش في أوساط السلبيين فإنهم ظلمة القلب، وداء العين، هؤلاء هم جزء من الظلام المنتشر في حياة الكثيرين... وهؤلاء هم الداء الذي أسهم في فشل الفاشلين..

بإمكانك أن تدعم ثقتك بنفسك بتسجيل انتصاراتك، وتدوين نجاحاتك أيّاً كانت، فإن هذه في الغالب لها مذاق خاص.. تتشوّق لها العين.. وتجول في القلب فتكتب فيه روائع مشرقة يستلهم معها الأمل، وينطلق بها إلى عالم المعالي! ذكّر بها نفسك بين الحين والآخر، وانطلق من خلالها إلى عالم النجاح والفلاح..

هذه بعض المعالم التي تساعدك حتماً في ثقتك بنفسك، وتصورك عن ذاتك.. لو تجاوبت معها بشكل منتظم يمكن أن تُحدث في نفسك شيئاً لم يكن لك على بال، فسر على بركة الله تعالى ترى النور يرمقنا من بعيد.



 معتقداتك سر نجاحك!!

لا أعلم سلاحاً أوثق في قلب صاحبه من سلاح المعتقد.. المعتقد الإيجابي يصنع منك بطلاً على وجه الأرض، المعتقد الإيجابي هو السلاح الذي يدفعك إلى القمم، ويقذف بك إلى عالم الأرواح.. ليتك تدرك هذه اللحظات ما تفعل المعتقدات في قلوب وأفكار أصحابها! لا أعلم في حياة ناجح على وجه الأرض كلمة فشل.. كلا! وما رأيت في حياتي مشهداً أكثر حزناً من مشهد ذلك الإنسان المتشائم.. ما رأيت ذلك ولن أراه بإذن الله تعالى ما دام في الأمة رجال يشعلون من الفتيل ناراً لا تخمد البتة!..

قم يا أيها القاعد، واركل عراقيل الفشل بقدميك.. قم فامض قدماً فالأرض فسيحة واسعة لا تضيق إلا على أصحاب الهمم الدنيئة والأفكار السلبية.. والتائهون بلا أهداف.. قم واهتف إلى المعالي.. قم فاقرأ ما خطه الناجح يوم قال: إذا لم تعتقد أنك تصنع عالمك بنجاحاته وإخفاقاته فأنت واقع تحت رحمة الظروف.. فتروّح القائل رائحة هذا الحديث العبقة في نفسه فقال: دعني أخبرك أنه لو توفّر لدي ذلك الاعتقاد ـ يعني عدم قدرته على صناعة الواقع ـ فسوف أرحل باحثاً عن ثقافة أخرى.. عن عالم آخر.. عن كوكب آخر..

إذاً لماذا تبقى هنا إن كنت مجرد نتيجة لقوى عشوائية؟! قم فاكتب تاريخك

وإلا فارحل.. ارحل إلى عالم غير هذا! إلى كوكب غير هذا! إلى مكان غير هذا؛ فلا بقاء لفاشل، ولا مكان لقاعد!..

تُرى ما الفرق بين من يملكون ومن لا يملكون؟ ما الفرق بين من يستطيعون ومن لا يستطيعون؟ لماذا يتغلّب كثيرون على المحن الهائلة في حياتهم ويحولونها إلى انتصارات رغم ظروفهم وأحوالهم؟ وآخرون على الرغم من كل ما يملكون من مزايا هم ضحايا ظروف عادية؟!.. إن النجاح قبل أن يكون انتصاراً على النفس هو قناعة سكنت القلب فأشعلت فيه المصابيح.. يموت أناس وهم على أسرتهم في أجواء العافية، ويموت آخرون وهم يكتبون تاريخ أمتهم بمداد من ذهب.. هل تريد أن تكون ناجحاً على وجه الأرض؟ هل تريد أن تكتب اسمك بمداد من نور على سطور التاريخ؟ هل تريد أن تكون شيئاً مختلفاً في أرض واقعك؟ إذاً تعال معي، أعلمك درساً لا تنساه:

إذا اعتقدت أنك ناجح، وجزمت بوصولك للمعالي، وأيقنت أنه لا يمكن أن يقهر عزمك مخذل؛ فتلك الساعة التي يمكن أن تحسبها من عمرك، وأن تكتبها في رصيد حياتك الجديد..

ألم يصلك خبر أهل الدنيا وهم يسعون في بلوغها وهم على وجه الأرض، كانوا يؤمنون وهم يكتبون بذلك أن الاعتقادات الصلبة تولّد رجالاً أقوياء في أفكارهم وأهدافهم، وليس أدل على أثر هذا الاعتقاد من حياة (إبراهام لنكولن) الرئيس الأمريكي في حقبة من الزمن، لم يصل لهذا الموقع الذي يراه شريفاً يستحق النضال حتى صنع العجب، وكتب درساً لكل متهاون أنه لا سبيل لبلوغ غايات الإنسان بغير التعب والنصب، وأن الحياة لا تحتفل إلا بأصحاب التضحيات؛ فهاهو في طريقه إلى منصب الرئاسة يصنع هذه التجربة؛ فقد حاول أول محاولة في مجال الأعمال وهو في الحادية والعشرين من عمره فأخفق، ثم حاول ثانية وهو في الثانية والعشرين من عمره فانهزم في انتخابات



تشريعية، ثم حاول ثالثة في مجال الأعمال وهو في الرابعة والعشرين من عمره فأخفق، ثم حاول رابعة وهو في السابعة والعشرين من عمره فأصيب بانهيار عصبي، ثم حاول خامسة وهو في الرابعة والثلاثين فخسر في انتخابات الكونجرس، ثم حاول سادسة وهو في السادسة والثلاثين من عمره فخسر في انتخابات الكونجرس، ثم حاول سابعة وهو في الخامسة والأربعين من عمره فخسر في انتخابات مجلس الشيوخ، ثم حاول ثامنة وهو في التاسعة والأربعين من عمره فخسر في انتخابات مجلس الشيوخ، ثم تم انتخابه رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية وهو في الثانية والخمسين من عمره!..

وهكذا هم الناجحون لا يوجد في قاموسهم كلمة تحمل معنى الفشل، ولا يوجد في حياتهم شيء اسمه الفشل البتة.. كل ما يجدون من لأواء في سبيل المجد لا تتمكن العراقيل من إيقافهم عن التفكير في النجاح والتميّز لحظة واحدة.. ليت شعري من يباري أصحاب الهمم أو يناطح أصحاب الإرادات! وقد كتب (أديسون) أن هذه التجربة التي حكاها لنكولن هي تجربة حية ليست نسجاً من الخيال كما يرى أصحاب الأوهام..! وهاهو يحاول مرة أخرى؛ حاول في موضوع الكهرباء الذي هو جزء من حياتنا اليوم ما يقرب من ألف محاولة، ثم توصل أخيراً إلى الأمنية التي كان ينشدها، والنجاح الذي كان يقصده.

من المعتقدات المهمة في حياة أي ناجح على وجه الأرض: أنه لا نجاح دون التزام.. إن العظماء ليسوا بالضرورة هم الأفضل والأكثر ذكاءً لكنك ستجد أنهم الأكثر التزاماً.. إن الطريق الوحيد نحو القمة هو من خلال الإصرار والعمل الجاد.. الالتزام بالعمل والمواظبة على الطريق، وقطع مسافة يومية باستمرار هو الطريق الأمثل للوصول إلى الأهداف الكبيرة والأحلام العريضة...

ومن خلال النور الساطع لهذه المعتقدات وأثرها في النفوس كتب (مانديلا) وهو في غياهب السجون، كتب يقول: أما جسم الإنسان فيتكيّف

مع أي ظروف قاسية، كما أن المعتقدات هي سر البقاء في ظروف الحرمان. وكتب يقول: إذا خرجت من السجن في نفس الظروف التي اعتقلت فيها فإنني سأقوم بنفس الممارسات التي سجنت من أجلها.

وكتب الشاعر أبو القاسم الشابي يعمّق هذا المعنى قائلاً:

إذا الإنسان يوماً أراد الحياة	فلا بدَّ أن يستجيب القدرْ
ولا بدَّ لليل أن ينجلي	ولا بد للقيد أن ينكسرْ
إذا ما طمحت إلى غايةٍ	ركبت المنى ونسيت الحَذَرْ
ومن يتهيّب صعودَ الجبالِ	يعشْ أبداً بين الحُفَرْ

وليعذرني فقد سطوت على منظومته هذا المساء فأبدلت مكان «الشعب» الإنسان، ومكان «ومن لا يحب» ومن يتهيّب، فذلك أليق بحديثي إلى الإنسان، لأنني أعلم ـ كما تعلم ـ أن حياة الشعوب مكونة من حياة الإنسان أولاً.

من المعتقدات المهمة في حياة أي ناجح على وجه الأرض: أنه لا نجاح دون التزام.

وأمثلة ذلك أكثر من أن تحصى؛ فهذا محمد بن طاهر المقدسي رحمه الله تعالى يقول:سمعت الحديث في أكثر من أربعين مدينة، وبلت الدم في طلب الحديث مرتين، مرة ببغداد وأخرى بمكة، كنت أمشي حافياً في الحر فأصابني ذلك، وما ركبت قط في طلب الحديث، وكنت أحمل كتبي على ظهري. وصدق من قال:

لأستسهلنَّ الصعبَ أو أدرك المنى	فما انقادتِ الآمالُ إلا لصابرِ

وابن القاسم رحمه الله يقول: رحلت من بلدي مصر إلى الإمام مالك في المدينة، وجلست عنده (١٧) سنة، فبينما أنا عنده دخل علينا شاب ملثّم، فسلّم على الإمام مالك، وقال: أفيكم ابن القاسم؟ فأُشير إليّ، فأقبل يقبّل عيني، فإذا هو ابني، تركت أمه حاملاً به قبل سبعة عشر عاماً وقد خيرتها بين البقاء أو الطلاق فاختارت البقاء.

والبخاري ظلت نفسه تنازعه في كتابة (الفوائد) وهو على سرير النوم مرات ومرات.. وهتف الطريق بابن الجوزي إلى أن قال: إنني لو قلت إنني طالعت عشرين ألف مجلد كان أكثر ولا زلت في الطلب.

وكتب أحد الناجحين بخط يده جملة بعد أن ذاقها واقعاً بعرق جبينه كتب يقول: الذين يختارون الطرق السهلة لن يصلوا أبداً إلى القمة. اهـ.

وعاش (تاكيو أوساهيرا) الياباني ثماني عشرة سنة خارج بلاده ومسقط رأسه اليابان، عاش خلال هذه السنوات يبحث عن سر تفوق أوروبة الميكانيكي، ولم ير أرض اليابان طول تلك السنين، ثم عاد بعد أن حفظ الدرس، وأتقن الصنعة ليطبقها واقعاً عمليّاً على أرض بلاده.. يقول: بعد أن رأى رئيس الدولة اليابانية المحركات وهي تشتغل بأرض اليابان ذهبت إلى بيتي ونمت عشر ساعات؛ وهي أول مرة أنام فيها عشر ساعات كاملة منذ خمسة عشر عاماً.

وما نيلُ المطالبِ بالتمنِّي ... ولكنْ تؤخذُ الدُّنيا غِلابا
وما استعصى على قوم منالٌ ... إذا الإقدامُ كان لهم ركابا

ورحل الحافظ ابن منده رحمه الله تعالى لطلب الحديث وعمره عشرون عاماً، ولم يرجع إلى بلده إلا وعمره خمسة وستون عاماً، ثم تزوّج بعد أن صار شيخاً في السبعين.

وإذا كانت النفوس كباراً ... تعبت في مرادها الأجساد

وصدق من ذاق التجربة، وعرف وعثاء الطريق فقال:

بقدر الكدِّ تُكتسب المعالي ... ومن طلبَ العُلا سهر الليالي

تروم العزَّ ثم تنام ليلاً ... يغوص البحر من طلب اللآلي

وثبت بما لا يدعو للشك تلك الحقيقة الناصعة التي نراها كل يوم أشبه ما تكون بالمثال الذي يدق في قلوبنا هتافات المجد... تلك الحقيقية القائلة:

قطرات الماء المتتابعة تحفر أخدوداً في الصخر الأصم





موقفك الذهني علامة فارقة في حياتك!!

دعني أخبرك بمفاجأة تتلخص في أن موقفك الذهني عن نفسك يستطيع أن يصنع الفرق الهائل في حياتك سلباً أو إيجاباً!.

أجزم يقيناً أن جزءاً غير قليل من الناس هم نتائج مواقف ذهنية، وتصورات عقلية في لحظة من لحظات أعمارهم.

أوضحت دراسة أن (٨٥٪) من أسباب النجاح والتميّز في حياتنا جميعاً تعود إلى مواقف ذهنية، وأن (١٥٪) من تلك النجاحات تعود إلى خبراتنا الفنية..

إن مواقفنا الذهنية عن أنفسنا لها الدور الأكبر في تحقيق نجاحنا أو إخفاقنا.. وقد قال أحد علماء النفس: «إننا نستطيع تغيير حياتنا عن طريق تغيير مواقفنا» العجيب أن كثيراً من الناجحين يتمتعون بمواقف ذهنية رائعة عن أنفسهم، ولو سألت كل الناجحين الذين تلقاهم أو تراهم لأدركت كم كانت المواقف الذهنية الرائعة عن أنفسهم سبباً في تحقيق ذلك النجاح المنشود في حياتهم، ومثل ذلك كم كان أثر المواقف السلبية على حياة كثير من المخفقين في حياتهم.

يقول صاحب كتاب (أراك على القمة): إن الموقف الذهني هو الشيء الصغير الذي يصنع الاختلاف الكبير.. إن قصة الحياة تثبت أن الأشياء الدقيقة غالباً ما تكون هي التي تصنع الاختلاف الضخم بين السعادة والمعاناة، والنجاح والفشل، والنصر والهزيمة... اهـ.

لقد تقرر لديّ بما لا يدعُ للشك أن الموقف الذهني الإيجابي يعد سبباً رئيساً فيما نصل إليه من نجاحات، وفي المقابل كم يكون الموقف السلبي سبباً فيما نصل إليه من إخفاقات.. لقد رأيت بعيني أناساً كثيرين لمواقف إيجابية بسيطة تغيرت حياتهم إلى أروع ما يتصور إنسان! وآخرين نتيجة مواقف أخرى تغيرت حياتهم إلى أسوأ ما يتصور إنسان! من المهم جدّاً إن أردنا التغير الإيجابي في حياتنا: أن نغيّر نظرتنا للأمور؛ لأنه من خلال هذه النظرة يمكن أن يقفز الإنسان قفزات أشبه ما تكون بالمستحيل..

خذ على سبيل المثال لاعب الكرة الذي يسجل هدفاً مع فريق معين؛ يظل هذا الهدف في أحيان كثيرة سبباً مؤثراً في نشاطه مع هذا الفريق بخصوصه، ويتفاءل كثيراً بلقائه ويتحقق له في الغالب ما يريده أو يتصوره.. وقل مثل ذلك إذا ترتب على مشاركته مع فريق آخر صورة سلبية؛ قلَّ أن يتحقق له شيء مع ذلك الفريق... مثل ذلك بالضبط من يسمع عن تحطّم طائرة بركابها؛ يظل هذا الموقف يسيطر عليه فيؤْثر سفر البر ولو كلف زمناً طويلاً، ومخاطر صحية.. لا يهمه ذلك ما دام أنه يجنبه ركوب الطائرة.. وقل مثل ذلك في أي شيء يترتب عليه موقف سواء كان إيجابيّاً أو سلبيّاً...

ويشبه ذلك إلى حد بعيد الخطيب الذي يتوفق في أول خطبة، أو يحصل له موقف مضاد؛ تبقى هذه الصور الذهنية عالقة إلى حد كبير في الذهن، ويترتب عليها قرارات تكون مصيرية في حق الشخص صاحب الموقف..

فقط أؤكّد عليك من خلال هذه الأسطر وأنبهك إلى شيء في غاية الأهمية.. هو أن الرجال بحق هم الذين يعتبرون المواقف السلبية التي تمر عليهم في مواقف معينة تجربة حية لموقف إيجابي بعدها، وفرصة لتعويد النفس على القيام بعد السقوط، والتقاط الأنفاس بعد الوقوع... هذا الدرس غاية في الأهمية.. وضرورة في التغيير..

يعجبني هنا موقف ذلك الضابط في إحدى حفلات التخرّج، بينما كان الأمير يسلّم دروع التخرج، فيأتي الضابط يمثّل الفترة التدريبية التي قضاها من عمره نموذجاً أمام الأمير، ولما وصل هذا الضابط أمام الأمير أراد أن يحييه بالتحية العسكرية المعروفة؛ فإذا به يسقط ويخر تحت أدراج المكتب، وبين أقدام الأمير في موقف تقف فيه حشود غفيرة كما هي حفلات التخرّج، ويعرض المشهد على القنوات الفضائية.. العجيب في الأمر، أن هذا الضابط من نوع خاص فعلاً.. سقطت أعضاؤه لكن لم تسقط همته ورجولته وثقته بنفسه.. استدرك الموقف، وقام مرة أخرى، وعاد يركض إلى البداية التي جاء منها ثم انتظم مرة أخرى، وأقبل على الأمير في صورة رجل واثق رائع يكتب خطوات الرجال، ثم وقف أمام الأمير وحياه.. لم يتمالك الأمير نفسه تجاه الموقف الإيجابي العجيب فعاد إلى ساعته الخاصة ثم نزعها وسلمها للضابط إجلالاً لهذه الروح العالية.. وصفّق الجمهور بحرارة.. وكسب الرجل بالموقف المحرج أروع صور الشخصية الناجحة التي أجبرت الجماهير أن تصفق إعجاباً بمثل هذه الشخصيات التي تستطيع أن تقلب المواقف السلبية في حياتها إلى أروع المواقف الإيجابية وليسَت مواقف إيجابية فحسب!..

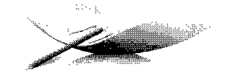
هب أن شخصاً ما قَدِمَ إلى منزلك ثم نثر فيه أكياساً من القمامة، ماذا تفعل تجاه هذا الشخص؟ حتماً سيكون موقفك حازماً للغاية ولن يستطيع أحد أن يخطئك في أي قرار اتخذته تجاه هذا الرجل.. فما أنت فاعل في الأشخاص الذين تكاد تكون مهمتهم محصورة في إلقاء القمامات ليس في بيتك وإنما في عقلك؟! كم من الناس اليوم يتخذون قرارات صارمة تجاه كل من تسول له نفسه تشويه بيته؟ لكنهم يعجزون أو قل يتغافلون عن أولئك الذين يردمون نفايات شبه يومية في أذهانهم.. إن ذلك الذي يصور لك ضعف قدراتك، أو يشكك في قراراتك، أو يقلل من فاعليتك، أو يزعزع ثقتك، أو يهوّن من آثارك ويزهدك

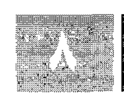
في المعالي.. كل هؤلاء يحسنون فن ردم النفايات في عقلك؛ وهو أسوأ بكثير من ذلك الذي يردم النفايات في قعر بيتك...

أعطيك مثالاً أكثر واقعية وأنت تراه يومياً في حياتك العامة.. ألم تشاهد مريضين بالسكر أو الضغط أو أي مرض يشكل ديمومة عند هذين الشخصين.. ألم تر أن أحد هؤلاء ينقص وزنه بشكل ملحوظ، وتضمر عيناه، ويبدو عليه آثار الإرهاق، ويكاد يكون منزعجاً للغاية، وهو يومياً يزداد تدهوراً في حالته الصحية، والآخر عنده نفس المرض، وربما نفس الأعراض أو أكثر، ومع ذلك لا تجد عليه مما ذكرت لك شيئاً البتة، يضحك بملء فيه، وحالته الصحية تبدو زاهية للغاية، حتى إنك تشكك في إصابته بتلك الأمراض التي يقولها أو يتحدث عنها الناس.. والسبب في ذلك كله الموقف الذهني الذي بناه كل منهما عن المرض... الأول منهما تجده دائماً يندب حظه، ويبكي زمانه، ويشكو أيامه، وربما سخط قدره واعترض على ربه.. والثاني مختلف تماماً؛ دائماً يردد الحمد لله على قضاء الله تعالى وقدره.. لست أنا الوحيد في هذا العالم فأمثالي كثير.. دائماً تجد على لسانه كلمات الأجر والمثوبة والأماني على ربه تعالى.. ونحو ذلك.

أعرف كثيرين ممن لقيتهم من زملاء العمل أو أصحاب في أعمال أخرى.. أتعجب حين أسمع سيرهم الذاتية.. أحدهم أصبح معلماً بعد أن كان كاتباً في دائرة حكومية، وعن طريق الدراسة المسائية، أو دراسة المنازل وصل اليوم ليكون معلماً للأجيال.. وأنا أعرف أنه حين كان في تلك الدائرة كان الأمل يملأ قلبه عن سر قادم، وكان موقفه عن ذاته إيجابياً للغاية.. ثم واصل إلى أن تحقق له ما يريد.. وآخر انتقل من الجندية في المجال العسكري إلى معلم متميّز في أوساط التربية والتعليم.. وهؤلاء لو لم يكن ثمة مواقف إيجابية عن أنفسهم لما كتب الله تعالى لهم الوصول إلى هذه المعالي في حياتهم!..

إنني هنا مسؤول أن أقدم لك حلولاً ترفع من أسهم نجاحك، لكن حتماً لست مسؤولاً أن أغرسها في عقلك وأجبرك على تمثلها ما لم تنوِ أنت على تمثلها واقعاً، والركض بها في عالم الحياة العريض.. إنني لن أقول لك مثل ما يقول أصحاب البرمجة العصبية: اكتب مواقفك السلبية، وعاداتك السلبية ومزقها، وقل أنا ناجح.. أنا ناجح.. أنا واثق.. كلا! وإنما سأقول لك: انطرح بين يدي ربك.. وألح عليه في الدعاء فإنه يحب الملحين، اسجد في هدأة الليل واسأله أن يعينك على حياتك القادمة، وأن يعينك على بناء نفسك ومستقبلك في أروع صورة تنشدها، فإن في هذا الوقت ساعة لا تكاد الاستجابة تخطئ صاحبها البتة، وأنت أعرف أن ساعة ما قبل الغروب يوم الجمعة لا يصادفها مسلم يسأل الله تعالى مما يحتاج إلا أعطاه.. ثم حاول مع ذلك جادّاً في تجريب بعض المواقف الإيجابية، والتعود عليها، وبناء تصورات رائعة نحوها... وكن صلباً، حادّاً، قويّاً أمام أي موقف من المواقف السلبية التي تعترض سيرك، وتعرقل مشيك. وحين يكون ذلك منك ستحلّق ليس في نفسك فحسب! وإنما ستحلّق على العالمين جميعاً.. وستكتب من خلال ذلك أروع صورة إنسان ناجح على وجه الأرض!..



 أيتام غيروا مجرى التاريخ!!

كثير من الناس إذا حدثته عن النجاح والتميّز وبلوغ المعالي قال لك مخدوشاً من آثار الماضي بلغة الكليم: كل هذه النماذج التي تراها تمثل نجاحاً إنما هي في المقام الأول أثر من آثار أُسر ثرية وفّرت لها ما تحتاج، ثم وصلت إلى ما تشتهي على وجه الأرض.. وهذا وهم لا يعدو أن يكون مجرد خرافة لا حقيقة لها، وكذبة لا واقع يسندها...

ذلك أن جزءاً ممن سطروا أسماءهم بحروف من ذهب في تاريخ الأمة أيتام لم يجدوا أباً يرعاهم، أو يوجههم!!.. وأمثالهم ممن لم يعرف تاريخ التعليم ولا بوابة المدرسة أصلاً..!! وغير هؤلاء كثير... ممن لم تزدهر له الدنيا، وترفرف لهم رايات المجد إلا بعد السبعين من عمره..

دعك من الوهم الذي يتعلّق به عامة الناس؛ فأنت أكبر من كذبة تسري في أفكار الكسالى أسرع من جريان الدم في عروقهم..

متى كان الوهم حقيقة؟! ومتى كانت أحاديث المجالس العامة براهين صادقة على واقع مشهود؟ أفٍّ لكل واهم أقنع نفسه بالواقع ليغيب في غياهب الجهل، ويموت قبل حلول أجله المحتوم.. لا أعرف مرضاً أكثر خطورة في حياة الناس اليوم من الوهم.. ذلك الشبح الذي دمّر جموعاً وهم أحياء على وجه الأرض!..

أما بلغك أن **الغزالي** فقد أباه صبيّاً، وكفله أحد الأوصياء لكن الهمة العالية سمت به في عالم المعالي حتى صار من كبار مفكري الإسلام!.

ألم يهتف بسمعك أن **ابن الجوزي** نشأ كذلك، وما زالت به الأماني حتى كتب يقول: «ينبغي للعاقل أن ينتهي لغاية ما يمكنه، فلو كان يتصوّر للآدمي صعود السموات لرأيت من أقبح النقائص بقاءه بالأرض..»، وقد بلغك قوله عن نفسه: «كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء، فكلما أكلت لقمة شربت عليها شربة، وعين همتي لا ترى إلا لذة التحصيل».

بل لا أظنه يفوتك خبر إمام أهل السنة والجماعة **الإمام أحمد** رحمه الله تعالى عاش يتيماً ولم يجد إلاّ أمّاً ترعاه، ومع ذلك ما زالت تهتف به المعالي حتى قال الشافعي: «خرجت من بغداد وما خلفت فيها أفقه ولا أورع ولا أزهد ولا أعلم ولا أحفظ من ابن حنبل».. ولا زال المسند الذي يزيد ما فيه على نيف وأربعين ألف حديث بعضاً من آثاره على وجه الأرض.. وما رحل حتى قال عنه بعض كتاب سيرته: «ما رأى الناس مشهداً أكبر من الجموع التي شهدت جنازته»... ومن قرأ سيرة ذلك الإمام أدرك أن الرجال ليسوا بموروثاتهم من الآباء والأجداد.. كلا! وإنما هم بعض آثار جهودهم وتاريخهم وحياتهم..

ومثل هؤلاء **البخاري** رحمه الله تعالى الإمام المحدث الشهير صاحب أصح كتاب على وجه الأرض بعد كتاب الله تعالى، نشأ يتيماً ولم يمنعه ذلك من التحليق في المعالي، حتى كتب ابن خزيمة قائلاً: «لم أر تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله ﷺ ولا أحفظ من البخاري».

وصدق من قال: «ساعة مجد تعادل عمراً لا مجد فيه»؛ فكيف إذا كان المجد أعماراً وليس ساعات في حياة ذلك الجيل الرائع في حياة الأمة...

وليس ذكر **الشافعي اليتيم** عنك بغريب؛ فقد نشأ يتيماً لا أب له، وصار يكتب التاريخ بنفسه على وجه الأرض حتى قال عبد الله ابن الإمام أحمد لأبيه: يا أبت أي رجل كان الشافعي فإني سمعتك كثيراً تدعو له؟ قال: «يابني كان الشافعي كالشمس للدنيا، والعافية للناس»..

وأمثالهم كثير؛ فما العلامة المحدث ابن باز، والفقيه السعدي إلا نماذج في أزماننا المعاصرة على الحقيقة التي لا يختلف فيها اثنان أن الإنسان إذا هتفت روحه للمعالي تخلت عن طريقه كل العوائق.. وصدق المتنبي الذي لم يصده الفقر عن طريق المعالي فكتب شعراً:

وتعظمُ في عين الصغير صغارُها وتصغُر في عين العظيمِ العظائمُ

وكتب (مانديلا) الذي يطارد من أجل الحرية كتب يقول: «العظمة في هذه الحياة ليست في عدم التعثر، ولكن في القيام بعد كل عثرة تتعثر فيها».

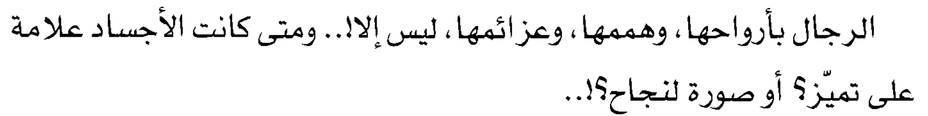
آهٍ لكل ضعيف جبان واهم أنه لا يمكن أن يكون للرجال تاريخ إلا بآباء أو ثروات أو أعوان!..

ليتني أموت ولا أرى جباناً يمشي على الأرض.. ولا أسمع واهماً يتأوه من المستحيل.. ولا أعرف تائهاً بلا هدف أو مكبلاً بلا عزيمة..

موت الإنسان خير له من أخبار مكلومة، ورجال مسلوبة.. وتاريخ مظلم وهن لا جديد فيه!..



٩ مشلول حرك العالم بدراجته!!



الرجال بأرواحها، وهممها، وعزائمها، ليس إلا!.. ومتى كانت الأجساد علامة على تميّز؟ أو صورة لنجاح؟!..

لله در الإنسان حين يحسب تاريخه بأيام الحرث في حياته، ولله در علي الطنطاوي حين كتب قائلاً: «الحياة ليست بطول السنين ولكن بعرض الأحداث»... ليتك عندي هذا المساء أيها الكهل سنّاً الشاب أملاً وعزماً فأقبِّل جبينك على أصدق كلمة دونتها يراعك.. ليتك عندي فأقبّل يداً تكتب أصدق ما يخالج القلب.. لئن رحلت إلى لقاء ربك فوالله الذي لا إله إلا هو ما رحلت، ولن ترحل من قلوب أجيال المسلمين حتى تنطمس الدنيا مؤذنة بالرحيل إلى الدار الآخرة... وفي رياض الجنان لقاؤنا بإذن الله تعالى...

ما كنت أدري أن الأرواح والعزائم والهمم تترحّل بأصحابها فترفعهم إلى الذُّرى ولو كانت أجسادهم معاقة مشلولة... حتى رأيت العلم المجاهد **أحمد ياسين** يكتب تاريخاً وهو على دراجته..

ما كنت أعلم البتة أن الرجال بهممها وعزائمها وقلوبها حتى أدركت سيرة هذا العلم المجاهد المشلول رباعيّاً، فاقد البصر في العين اليمنى، وضعيف الإبصار في العين اليسرى.. يعاني طيلة حياته من ألم مزمن بالأذن، وحساسية في الرئتين، وأمراض تعاوده بين الفينة والأخرى.. ومع كل ذلك يركض على

دراجته في أرجاء فلسطين كلها ليكتب تاريخ أمته، ويوسّع دائرة أثره، ويكتب نصر دينه؛ فلله دره ما أروعه!!..

ما بين إصابة المجاهد صاحب المعالي بالشلل وهو في الرابعة عشرة من عمره.. إلى تاريخ رحيله وهو في الخامسة والستين من عمره، واحد وخمسون عاماً قضاها المجاهد في سبيل دعوته، ورسالته، وهموم أمته... كانت كافية لبناء هؤلاء المجاهدين اليوم الذين يخلفونه في ساحات الوغى يكتبون أنهم تلامذة شيخ بطل، ومجاهد مقدام...

إحدى وخمسون سنة لم يتخلّف فيها المجاهد لحظة عن رسالته وهدفه.. إحدى وخمسون سنة ظل المجاهد ثابتاً على المنهج مرابطاً على الطريق.. إحدى وخمسون سنة عاشها المجاهد وهو يتلألأ أحلاماً، ويشب عمراً وآمالاً... إحدى وخمسون سنة أحسب أنها كانت برهاناً على صدق النية، وسلامة المقصد، فيا لله ما أروع الرجال حين تسموا أهدافهم، وتنبل مقاصدهم...

رحل المجاهد بعد لقاء الله تعالى في صلاة الفجر... رحل وهو خارج من أطهر بقعة على وجه الأرض.. رحل وهو يشرب من المعين الصافي في صبح اليوم الأول من شهر صفر من عام (١٤٢٥هـ).

رحل المجاهد لا كما يرحل الناس... رحل بعدما تكالبت يهود وتآمرت على قتل المشلول على دراجته بثلاثة صواريخ... لم يقووا على مواجهته على الأرض... فراحوا يخططون لرحيله من الفضاء.. رحل بقدر الله تعالى، رحل وهو على دراجته تلك التي كان يجوب عليها أرض غزة ليكتب تاريخ الشهداء.. رحل في يوم مشهود لا كما يرحل الناس.. رحل والمقل ملأى لرحيله.. رحل بعد أن جللت دماؤه أرض غزة أمام مسجدها المبارك... رحل بجسده وبقيت روحه تسري في العالم الإسلامي... ولا أدل على ذلك من صمود غزة أمام كل صنوف البلاء.. وثبت بما لا يدعو للشك أن النفوس الأبية لا يمكن أن تركع للقمة عيش أو تسجد لظلمة ليل.. كلا!..

رحل المجاهد بعد أن كتب بدمه لا بعبث الجاهلين سيرة مجد، وتاريخ أمة مجاهدة... رحل وصدق من لهج لسانه مودعاً بقوله:

يا أحمد الياسين إن ودَّعْتنا ... فلقد تركتَ الصدق والإيمانا

يا فارسَ الكرسيِّ وجهك لم يكن ... إلاّ ربيعاً بالهدى مزدانا

في شعر لحيتك الكريمة صورة ... للفجر حين يبشّر الأكوانا

فرحت بك الحور الحسان كأنني ... بك عندهن مغرّداً جذلانا

قدّمت في الدنيا المهور وربما ... بشموخ صبرك قد عقدت قرانا

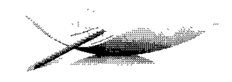
هذا رجائي يا بن ياسين الذي ... شيّدت في قلبي له بنيانا

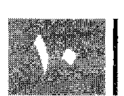
دمك الزكيُّ هو الينابيع التي ... تسقي الجذور وتنعش الأغصانا

ستظل نجماً في سماء جهادنا ... يا مقعداً جعل العدوَّ جبانا

رحل المجاهد ليكتب تاريخاً أبلغ من كل بيان... فهل بعد هذا الدرس درس أبلغ؟! وهل بعد هذا التاريخ تاريخ أروع؟! ليت شعري من كتب على نفسه الكسل والتواني هل يستطيع الياسين هذا المساء وهو في قبره أن يقنعه برسالته.. ويقيم روحه تعانق المجد من جديد؟!..

هذه كلماتي تمتزج بروحي، وتخالط بشاشة قلبي، فتنتزع آلامي... ليتك يا أيها العاجز هذا المساء تعرف ما يخالج قلبي! ليتك تعلم مقدار الأشواق في روحي على الأقل تعذرني حين أقول: إذا لم يكن لك همم الرجال.. وتاريخ الأبطال.. فلا بقاء لك على أرض أنت فيها أشبه شيء بسقط المتاع!..



 عظماء بلا مدارس!!

لم تكن المدرسة في يوم من الأيام هي بوابة النجاح فحسب! ولن تكون كذلك إلا في أعراف الكسالى التائهين.. الذين خرجوا من المدرسة في عالمنا اليوم خرجوا وهم مخمورون من فكرة «لا نجاح في الحياة إلا من بوابة المدرسة..» فبقوا على الطرقات يرون الناس تجري نحو مجدها وهم لاهون عابثون بأوقاتهم وأعمارهم..

أصحاب المعالي وعباقرة التاريخ وكُتّاب النجاح لم تكن المدرسة بوابتهم لتحقيق المعالي.. كلا! بل شقوا طريقهم من بوابة أخرى.. وقد علمت أن النفوس الأبية لا تخضع لنظام.. ولا تنحني لفكرة موهومة وإنما تشق المستحيل حتى تكتب في ثناياه تاريخها الذي تريد.. وهذه حقيقة لا ينبغي الجدال فيها.. وشواهدها أكثر من أن تحصى..

ألا تعلم أن الأعلام على وجه الأرض هم حسنة من حسنات التاريخ؟! ليتك تدري أن كل ناجح هو وليد حياته لا حياة الآخرين.. ومولود زمانه لا أزمنة الآخرين.. ونتاج فكره فحسب!..

أحمد ديدات رحمه الله تعالى اسم في سماء الدعوة والجهاد والعلم والمناظرة؛ غادر المدرسة من الصف السادس، غادرها ليخط بعزيمته أعظم مدرسة على وجه الأرض، المدرسة التي تخرّج رجالاً يحملون النور منهجاً،

والتاريخ مصباحاً ليضيئوا به عالم الدنيا كلها.. عمل بائعاً في دكان لبيع المواد الغذائية، ثم سائقاً في مصنع أثاث، ثم كاتباً، ثم مديراً لمصنع الأثاث.. ثم التحق بدورات تدريبية في صيانة الراديو، وأسس الهندسة الكهربائية.. ثم رحل إلى باكستان ليعمل على تنظيم معملٍ للنسيج.. ثم رحل إلى جنوب إفريقية.. ثم توقف عن العمل وبدأ جهاد الدعوة والإصلاح.. وظل هكذا إلى أن رحل من الدنيا وحياته عامرة بالجهاد والدعوة من أجل الإسلام؛ فرحمه الله تعالى..

وإذا تحدثنا عن العظماء بحق فيأتي في زمرتهم ومقدمهم فارس الحديث، ومحدث العصر، العالم الرباني: **محمد ناصر الدين الألباني** رحمه الله تعالى؛ كفاه من المدرسة النظامية صفها السادس الابتدائي، ثم لم يدخل بوابتها مرة أخرى، وكان فقيراً معدماً صنعته ومهنته إصلاح الساعات؛ إذ لم يكن له مورد رزق غيرها، بدأ في تعلّم الحديث من العشرين من عمره، وأشعلت مجلة المنار فكرة المشروع لديه فكانت بداية عادية سرعان ما خاضت لجج التحديات لتنتهي إلى نهاية غير عادية. ولم يرحل بائع الساعات حتى دفع إلى المكتبة الإسلامية ما يزيد على مئة مؤلّف، الواحد منها لا يصنعه إلا فئام الرجال... وهل العزيمة إلا بعض هذه الآثار!!..

أبو الأعلى المودودي رحمه الله تعالى العالم الكبير في سماء الدعوة والإصلاح كانت المرحلة الثانوية هي نهاية بوابة المدرسة تعليماً نظاميّاً.. عاش في أسرة فقيرة... وبدأ كاتباً صحفيّاً على مقالات قصيرة في سن مبكرة.. ثم رحلت به همته داعياً ومجاهداً حتى ترك هذا التراث الكبير الذي تتربى عليه الأمة اليوم.

مصطفى صادق الرافعي رحمه الله تعالى لم يتجاوز تعليمه النظامي المرحلة الثانوية فحسب! بل لم يبلغ الثلاثين من عمره حتى أصيب بصمم في أذنيه، فلم يسمع شيئاً بعد ذلك التاريخ.. اشتغل كاتباً ومحصِّلاً مالياً في

محكمة طنطا.. وبقي كذلك حتى فارق الدنيا.. ولم يفارق الدنيا حتى كتب هذا التراث العظيم..

سليمان بن عبد العزيز الراجحي وفقه الله رحل من المدرسة ولم يتم الصف الثاني الابتدائي، ثم لم يعد إليها، بدأ ببيع الجاز بقرش ونصفه فقط.. كما عمل طباخاً وخادماً، ثم رحل بعزيمته طارقاً باب التجارة ولم يتركها حتى كتب اسمه في عداد التجار الكبار في بلاد الحرمين.. وما غبط صاحب مال مقدار ما غبط هذا العلم الذي لا أعلم جهة خيرية في بلاد الحرمين إلا وقد ضرب فيها بأوسع ما يتصور طالب أجر.

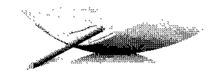
عبد الرحمن الجريسي وفقه الله صاحب أكبر مجموعة تجارية في بلاد الحرمين نشأ يتيماً، ولم تحتضنه المدرسة سوى خمس سنوات، غادر بعدها رواق المدرسة ليبني مجده بيده وفكره وعزيمته، وليخط بسطور من نور أن أصحاب المعالي لا تثنيهم العقبات، ولا يعرفون في قاموسهم كلمة «مستحيل».

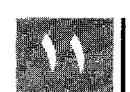
بدأ حياته العملية في سن الرابعة عشرة عاملاً لدى أصحاب المحلات التجارية.. فكانت الخطوة الأولى لإنشاء بيت الرياض الذي كان نواة لثماني شركات قائمة اليوم للطفل الذي خرج من الصف الخامس مغموراً لا تاريخ له، ولا تفوق معه..

متى كان الإخفاق في الدراسة علامة على فشل الحياة؟! أو ضياع الطريق؟! أو ظلام ليل لا نور بعده؟! لم يكن ذلك في لحظة؛ فكيف يكون عرفاً سائداً في حياة فرد أو جماعة؟!

..هذه لوحة عريضة من العظماء في تاريخ أمتهم.. كتبوا أن الناجح لا تستطيع العقبات على الصبر طويلاً أمام عزيمته... وكتبوا أن طرق النجاح أوسع مما يتصوره الجهلاء الكسالى.. وكتبوا أن الفقر وضعف التعليم في مرحلة ما لا تقوى على منع أصحاب الهمم من مواصلة مشوارهم الطويل بنجاح..

فهل بقي للراحلين من المدارس النظامية في وقت مبكر عذر في عدم التحليق في سماء المعالي بعد اليوم؟!.. إن كنت واهماً أنه لا نجاح إلا من بوابة المدرسة فقد جاءك الخبر اليقين أنها كذبة كانت منتشرة في أوساط كثير من الناس، فعزمت هذا المساء على طمسها من تاريخهم.. وأبقيت لهم النماذج وتاريخها ليتأكدوا؛ فلا عظة أكبر من النموذج القائم...





تفكيرك الإيجابي!!

في عالم الإنسان روحٌ مفقودة، وأسرارٌ مخفية، وحين يكتب الله تعالى له التنقيب عنها، وإشعال فتيلها؛ يطير في عالم الأرواح أكثر مما يطير في عالم الأجساد.. الناس آثار تفكيرهم، ونتائج آمالهم، وعواقب حساباتهم في فترة من الزمن.. وصدق القائل: «تُعد ثقتك بنفسك عند البدء بمشروع نتائجه غير مضمونة الضمان الوحيد لنجاح تلك المجازفة».

إن توقع الأفضل ينقل النفس مباشرة من عالم الحيرة والتجربة إلى عالم الجرأة والمجازفة دون النظر إلى مآلات وعواقب الأمور.. والإنسان اليوم وكل يوم هو بعض تفكيره.. وأفكار الناس تقودهم إلى المعالي أكثر ما تقودهم أجسادهم.. لا أعرف واثقاً غير جريء! ولا أعلم جريئاً يفكر في العواقب السيئة قبل أن يجول في عالم العواقب الرائعة.. يتحدث كثير من المدربين عن بناء الثقة فيؤكدون دائماً على أن الإنسان بحاجة إلى أن يكثر من التوكيدات الإيجابية في حياته «يجب أن أفعل، أستطيع أن أفعل، سوف أفعل، أنا قادر على فعل ذلك كله».. ومع إدراكي لأهمية ذلك إلا أنني وعن تجربة شخصية أؤكّد على ضرورة التفكير الإيجابي، وتوقع النجاح، والتأكيد على النفس أن الحياة كلها «محاولة جريئة أو لا شيء» والفعل هو الخطوة العملية التي تكتب للتفكير الإيجابي النجاح المنشود.. اغسل من عقلك الأخطار، وتجاوز به العقبات،

وارفعه عن تفاهات الرسوب فإنها أشبه ما تكون بالسراب في الصحراء القاحلة تحسبه ماءً ولا تجد فيه قطرة.. عن تجربة شخصية أقول: أكثر ما قتل الناس الوهم.. الخوف.. ليتني في عقل كل جبان حين تردده لما تركته حتى أسقيه لذة الانتصار بعد الخوف، وعواقب الثقة ولذائذها بعد المغامرة. وصدقني إذا قلت لك: إن أكثر ما يقتل الناس وهم أحياء، ويؤخرهم وهم قادرون على التقدم وَهْمٌ جاثمٌ على القلب.. ليتهم دروا أنهم في اللحظة التي تركوا فيها المغامرة فاتهم ألذ ما على النفس من آثارها ولذائذها..

إن الحقيقة التي لا يختلف فيها اثنان هي أن الثقة، والإيجابية، وتوقع الأفضل، والجرأة، فقط هي التي جعلت نفر من الناس على وجه الأرض قادة، وحمّال رسالة، وكُتّاب تاريخ، وكل شيء يخالف هذه الحقيقة هو أشبه ما يكون بالوهم لا حقيقة له على أرض الواقع.

أحذّرك وأنت تقرأ أحرف قلمي هذه اللحظة أن تفتح باباً وأنت خائف، أو تدخل مشروعاً وأنت مهزوم، أو تلج على عالمك الداخلي وأنت شاك في بلوغ المجد أو وصولك إلى عالم الفوز.. فإن كنت كذلك فلا تفرح بغائب فلن يأتي، ولا تتمنى نجاحاً فلن يكون!..

هل تدري أن أغلب الذين يخفقون في حياتهم هم عرضة للتشكيك في أفكارهم ومعتقداتهم؟!..

إنني أدعوك هذه اللحظة أن تبدأ التجربة معي عمليّاً عندما تسمع بخبر ما تأمّل في إيجابيته، ووجّه عقلك إلى فوائده، ولا ترم بفكرك أول ما ترمي إلى مواقفه وآثاره السلبية؛ فإن هذه بعض سموم التفكير القاتلة.. كل موقف تخافه اقتحمه.. كن كذلك، وجرب، وسترى النور أقرب إلى شراك نعلك من الظلمة التي تكاد تعصف بشعورك! وسترى الأفراح في قلبك أكبر بكثير من الأوهام التي تبدد أحلامك..

إن النجاح الوحيد في الحياة هو أن تستطيع أن تحيا حياتك بالطريقة التي تريدها.. لا تصعق إذا قلت لك: إن غالب المرضى والمدمنين والسجناء والراسبين والمخفقين هم ضحايا تفكيرهم القاتم لا غير!..

لعلك تدري أن كل ما نحققه على ظهر هذه الأرض يبدأ بصورة ذهنية تخلقها أذهاننا فترحل بها من عالم المثال إلى عالم الواقع، وحين تختمر في الذهن، وتنبت في فضائه، تهيج أوراقها على الأرض، وتثمر ثمارها في الواقع.

لقد كتب (مانديلا) وهو لم يعش وقتك، وخياراتك، وأيام الربيع مثلك، وإنما عاش مكبّلاً بالحديد، وخلف القضبان سبعة وعشرين عاماً، وخرج بنفس المبدأ الذي دخل السجن من أجله، كتب قائلاً: «إننا نقتل أنفسنا عندما نضيّق خياراتنا في الحياة».. فماذا بقي لك من عذر أو قول تهاتف به أذنك فتقنعها بواقعك؟!. قم فالذين يفكرون بهذه الطريقة لا يبرحون يأكلون من خشاش الأرض.

أسوأ رجل في حياتي إلى تاريخ هذه اللحظة، وما بعد هذه اللحظة إلى وداع الدنيا هو ذلك المتشائم الذي ينظر إلى عواقب الأحداث أكثر من نتائجها.. ويمعن في الخسائر أكثر من التحليق في البشائر.. سيظل أسوأ رجل.. وسأظل هكذا أنظر له.. وسأرحل وأنا أقول له ولأمثاله: يكفيك جبناً، وتشاؤماً، ومرضاً هذا التفكير القاتل الجاثم على روحك.

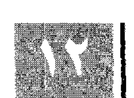
وقبل أن أودعك دعني أقول لك: أما قال رسولك ﷺ: «**واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن لصيبك**»..

أما بلغك أن خالد بن الوليد تطلّب بريق السيوف في أرض المعارك فما ناله الموت إلا على سرير الأمن.. وردد كلمته الشهيرة: «تطلبت الشهادة في أكثر من معركة.. وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح، وها أنذا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء»

* * *

إضاءة: إن الذين يرتقون إلى مكانة عالية في هذا العالم هم الأشخاص الذين استطاعوا تخيّل أنفسهم في تلك المكانة قبل تحقيقها.



 من أسرار الناجحين !!

كنت ولا زلت أتوق إلى المعالم التي جعلت من الناجحين نماذج على ظهر الأرض.. كم كنت أتمنى أن أجلس مع ناجح ليحدثني بالأسرار التي جعلت منه هذا النموذج المثالي على عالم الأرض.

ولأن هذه آمالي فقد حصل لي التعرّف على الأسرار التي خلقت من الناجحين نماذج تمتلئ بها العين، ويهتف لها القلب..

أول صفة من صفاتهم وهو السر الكامن وراء نجاحهم أن لديهم أحلاماً.. لا بد لك إن أردت أن تهتف بك المعالي أن يكون لديك أحلام ورؤى.. يجب أن تضع شيئاً نصب عينيك، وتتعلّق آمالك به.. والسر الآخر في هذه الأحلام أن تبقى مع نفسك لساعات لتكتب الشيء الوحيد الذي يطلق العنان لطموحك، ويثير فيك الرغبة لتحقيق تلك الأحلام مهما كانت العوائق.. هذه شرارة كل ناجح.. تعلقوا بذلك وبذلوا فيه، ونصبوه حلماً لطموحاتهم فصار همّاً ينامون ويستيقظون عليه.. حين تُحسن بناء الأحلام في الهواء يمكن أن يقال لك: قد بدأت تخطط على أرض الواقع للمستقبل المنتظر..

لكنني أحذرك وأقول لك: إياك أن تكون أحلامك ترجمة لأحلام آخرين دفعك إليها الفضول أو التقليد! إياك أن تلبس حلماً خاطه غيرك.. بل انطلق بعنان فكرك إلى أعماق نفسك.. هناك إلى الداخل منها.. إلى أغوارها بحق، ثم

فكر ما هو الحلم الذي حين تختاره ستتفاعل معه كل ذرة في روحك، وفكرك.. إن وصلت إلى هذه النقطة بالذات فليس بينك وبين النجاح إلا مجرد زمن تقتطعه مسافات الأحلام الواعدة، والركض العملي الجاد فيما يستقبل من أيام.

حدد حلمك بمفردك.. حدد الحلم الذي إذا سمعت حديثاً فيه أرخيت أذنك متعطشاً لمن يفيض في معناه.. حدد الحلم الذي إذا سمعت بدورة أو لقاء حوله بعت أعز ما تملك للرحيل نحوه، والقرب منه!..

حدد حلمك كما قلت لك بمفردك، الحلم الذي يلامس شغاف قلبك، ويرحل بها إلى عالم الروائع في حياتك.. صدقني إذا قلت: هذا النوع من الأحلام هو الكفيل بكتابة نهايتك الرائعة قبل البدء في تحقيقها..

السر الثاني: لا بد أن يكون حلمك كبيراً، لا بد أن يكون حلماً تشتاق له، وترحل إليه، وتنفق من أجله روحك قبل مالك ووقتك! إياك أن تضع حلماً باهتاً لا أثر فيه.. وبسيطاً لا صوت له.. وضعيفاً لا لون فيه.. إذا أردت أن تكتب أثرك أوسع ما تكون فاكتب حلماً تتوق له نفوس أهل المعالي.. وتشرئب له أعناق الرجال.. ثم يترددون في أمثاله لأنه لا يصلح إلا للكبار من أمثالك!..

الأحلام الكبار هي التي جعلت من أبي بكر رضي الله تعالى عنه لا يقنع بباب واحد يزاحم فيه الناس للولوج إلى عالم الجنان.. بل أراد أن تُستفتح له الأبواب كلها ليكتب أن التاريخ لا يتوسّع حقيقة إلا لأصحاب الأحلام الكبيرة.. قالها أبو بكر حين قال النبي ﷺ: «**من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير؛ فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة**» قال: هل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: «**نعم و أرجو أن تكون منهم**».

ونفسها الأحلام الكبار هي التي هزّت عرش الرحمن لرحيل **سعد بن معاذ** في صورة لم تُسمع عن بشر، وهي ليست بعيد عن بني البشر.. أما أنا فلا ينقضي عجبي من هاتين الشخصيتين.. ولم تكن والله في يوم من الأيام مطرقة من حديد يضرب بها جسدي، كلا! وإنما هي مجداف أمل يخرجني من أمواج الوهن القاتل إلى عالم الأفراح الفسيح..

وهي ذاتها الأحلام التي رحلت **بعمر بن الخطاب** رضي الله عنه إلى أن يتنزّل القرآن على لسانه، ويكون الباب الذي يكسر دون الفتنة، وهو ذاته الرجل الذي تفر منه الأباليس.. وهل هذه إلا بعض حظوظ الأحلام الكبيرة؟!..

السر الثالث الذي يكمن وراء تحليق الناجحين في المعالي هو: الرغبة العارمة لتحقيق الآمال والطموحات.. الناجحون تتلهّف قلوبهم تلهّف الظمآن للماء البارد.. هذه الرغبة إذا وجدت في القلب رحلت به إلى عالم الأماني والتحديات..

أنا لا أتصوّر إلى هذه اللحظة التي يخط فيها قلمي هذه الآثار أن رجلاً يمكن أن يحقق حلماً أو تهفو نفسه إلى المعالي ولم تخامر عقله الرغبة الطامحة لبلوغ أمانيه..

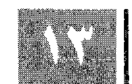
الإنسان بلا رغبة جثة هامدة.. وجسد لا روح فيه.. وحيّز على الأرض لا معنى فيه.. ليت شعري هل يدرك قارئ أسطري هذه كم تطوّح الرغبة بأصحابها إلى عالم تحتفل أرواحهم بالإنجاز قبل أن تحتفل أجسادهم بالفوز.

السر الرابع خلف تحليق الناجحين في سماء المجد: القناعة بما يريدون تحقيقه على ظهر الأرض.. فالناجحون قناعتهم كبيرة جدّاً بمشروعاتهم، وقدراتهم، ووهج رغباتهم.. فهم نسيج من مواصفات الكبار..

* * *

إضاءة: ليس هناك شيء يحل محل الإصرار...



 رؤيتك لمستقبلك

تبدأ الرؤية أمراً محيراً في عقول بعض الناس، حين يقرؤونها لأول وهلة، وفي المقابل تبدو عطشاً يخامر الروح، حينما نتأملها وندرك نهايتها.. إنها السحر الذي حول أفراداً وجماعات، ومجتمعات ودول إلى عالم من النجاح.. وليس أدل على أمثلتهم من الواقع الحي.

لا أعلم ناجحاً على ظهر الأرض إلى هذه اللحظة تنزّلت عليه هبة السماء وهو راقد لم ينهض بعد من فراشه! ولا أظنك تجده أنت كذلك.. فإن وجد فلا تفرح به فإنه خلاف السنن الربانية!.. لقد بلغك أن الكون كله مبني على سنن إلهية لا تتغيّر البتّة، يأتي في مقدمة هذه السنن قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] فهل بقي معنى أبلغ من تلك الآية دليلاً على ما قلت. الرؤية شرط للوصول إلى الأهداف التي نسعى لكتابتها على أرض الواقع.

كان الحلم والرؤية التي يناضل من أجلها نبيك ﷺ تعبيد الناس لربهم تبارك وتعالى، وظلت هذه الرؤية كاشفة الرأس في كل لحظة عاشها نبيك ﷺ على وجه الأرض على مدار ثلاثة وستين عاماً؛ حينها رأى الأمة عابدة الصنم والخاضعة للوثن خلف أبي بكر الصديق تتعبّد لربها تبارك وتعالى في صورة جماعية لم يسبق لها مثيل! تُرى كم بين هذه الرؤية وبين ما تحقق على أرض الواقع من الآلام؟ كم بينهما من دماء؟ كم بينهما من طرد وإبعاد؟ لن أفيض معك في شيء

من ذلك، بل أدعوك كي تقلّب صفحات السيرة كيفما شئت، ويمكنك بعد ذلك إخباري بذلك الكم الهائل من عمر ذلك النبي ﷺ!.

وقل مثل ذلك كم هي التضحيات التي استلزمتها الرؤية التي خطها أبو بكر الصديق والمصلحون من بعد ذلك اليوم إلى تاريخ هذه اللحظة التي تقرأ فيها أسطري هذه ما يدعو للعجب، ويدعوك للتأمّل في أثر الرؤية في نهايات سير أهل الدنيا على الأرض.

خذ سيرة أي ناجح على وجه الأرض سواء كان هذا النجاح مما يتصل بالدار الآخرة أو هو نجاح على وجه الدنيا مبتور عن الدار الآخرة، حتماً ستجد ثمة رؤية اختطّها لنفسه قبل أن يبدأ في مشروعه، فكانت النهاية أنه أصبح النموذج التي يُحتذى في التاريخ الذي يُكتب!..

الرؤية هي النتيجة النهائية التي تسعى لتحقيقها، وهي كلمة عامة للأهداف، وهي المكانة التي تصورتها في ذهنك، وستصل إليها بعد عدد من السنوات.. هذه هي الرؤية؛ فما أنت صانع في مستقبلك الذي بين يديك؟ أرجوك حين تقرأ هذه الأسطر أن تجلس مع نفسك ساعات لتفكّر في صناعة مستقبلك، وتحدد رؤيتك بوضوح؛ تحدد نهايتك ماذا تريد بعد عشرين عاماً من حياتك القادمة؟ من أنت اليوم؟ ومن أنت بعد عشرين عاماً قادمة؟ أو أقل أو أكثر! هذه المساحة إذا حددتها بوضوح وكتبتها وهي تملأ قلبك بصدق، وتوجهت إليها بكل جوارحك، وتعلقت بالله تعالى راجياً صادقاً ملحّاً وبدأتَ الخطوة الأولى؛ فدعني أقل لك: هنيئاً على النجاح من اليوم! وستجد صدق كلامي في قابل الأيام.

لقد علّمنا (مانديلا) في سيرته الشهيرة أن الرؤية تصنع إنساناً لا تخضعه الظروف للانحناء، وعلمنا أن الذي يعيش لرؤية يقاتل دونها ولو تمزّق أشلاءً.

الرؤية هي الحادية لركوب الأهوال، والطمس على المخاطر في الظلمات. وقد كتب (مانديلا) في هذا المعنى قائلاً: لقد علمني مشواري الطويل على

درب الحرية بأن النجاح في التسلّق إلى قمة الجبل يكشف للمرء أن بانتظاره المزيد من هذه القمم كي يتسلقها.. وهكذا دواليك! اهـ.

الرؤية لا تعترف بالقيود مهما كانت كبيرة، وشاقة ومضنية.. الرؤية تعترف بشيء واحد في الكون فقط هو أنه لا يمكن لشيء في الدنيا مهما كان أن يعوق الإنسان من التلذّذ برؤيته في يوم من الأيام.. دعك من المال أو الوقت، أو العمل أو المجتمع أو الواقع، هذه خيالات يتسلى بها الفاشلون، ويوهمون أنفسهم أنها عوائق، وليست كذلك!

الرؤية الحقة في حياة أي إنسان تهتف بالنفس لتركب كل عسير، وتعانق المجد، وتكتب أفراحه اليوم قبل الغد.. فقط أرجوك أن تتذكّر أن أصحاب الإنجازات العظيمة كانت لديهم رؤية أكبر بكثير من الواقع، فكان لهم ما أرادوا!

إن أعظم خطر يواجه الإنسان ليست أن رؤيته عالية، وإنما الخطر الحق أن تكون رؤيته بسيطة ومتواضعه ويمكنه تحقيقها بأقل جهد.

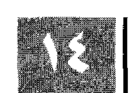
خذ قلمك ودوّن في هذه المساحة رؤيتك.. حياتك.. مستقبلك.. أحلامك.. سأكون بعد عشر سنوات قادمة من حياتي ما يلي:

....

....

....

إذا كتبت هذه الرؤية بوضوح علّقها على جدار مكتبك، أو على جدار غرفة النوم، أو في مدخل بيتك.. المهم أن تقرأها في اليوم الواحد عدة مرات، وسنلتقي بإذن الله تعالى بعد هذه الأعوام وأنت عالَم آخر غير عالمك اليوم.. إنسان آخر غير إنسان اليوم! رجل آخر غير رجل اليوم! ثقتي في الله تعالى أولاً، ثم فيك ثانياً أنك ستصنع شيئاً مؤثّراً ليس في حياتك فحسب! ولكن على مستوى مجتمعك وأمتك.. فسر على بركة الله تعالى، فالمعالي بين يديك!..

 همم تعانق السحاب

الهمة سلاح القلب للمعالي، وسوط الجسد إلى ارتكاب الأهوال، والحادي نحو لذائذ الآمال.. وقد هتف بك **ابن القيم** رحمه الله تعالى قائلاً: الهمة كالطائر العالي على الطيور لا يرضى بمساقطهم، ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم، فإن الهمة كلما علت بعدت عن وصول الآفات إليها، وكلما نزلت قصدتها الآفات من كل مكان، فإن الآفات قواطع وجواذب.. فعلو همة المرء عنوان فلاحه، وسفول همته عنوان حرمانه...

وهتف بك **ابن الجوزي** حادياً فقال: الهمة ما تقف إلا لخساستها، وإلا فمتى علت الهمة فلا تقنع بالدون.. وقد عُرف بالدليل أن الهمة مولودة مع الآدمي، وإنما تقصر بعض الهمم في بعض الأوقات، فإذا حثت سارت، ومتى رأيت في نفسك عجزاً فسل المنعم، أو كسلاً فسل الموفق، فلن تنال خيراً إلا بطاعته، فمن الذي أقبل عليه ولم ير كل مراد؟! ومن الذي أعرض عنه فمضى بفائدة؟! أو حظي بغرض من أغراضه؟!. اهـ.

الهمة تلقي بأصحابها في مواطن الهلاك كأنها تلقي بهم في بلاد الأفراح.. حدّث عبد الله بن قيس عن أبي أمية الغفاري قائلاً: كنا في غزاة، فحضر عدوّهم فصيح في الناس فهم يثوبون إلى مصافهم، إذا رجل أمامي، رأس فرسي عند عجز فرسه، وهو يخاطب نفسه قائلاً: أيْ نفس! ألم أشهد مشهد كذا

وكذا؟ فقلتِ لي: أهلُك وعيالك.. فأطعتك ورجعت؟ ألم أشهد مشهد كذا وكذا؟ فقلتِ لي: أهلك وعيالك.. فأطعتك ورجعت؟ والله لأعرضنك اليوم على الله، أخذك أو تركك.. فقلت: لأرمقنّه اليوم.. فرمقته، فحمل الناس على عدوهم فكان في أوائلهم، ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا فكان في حماتهم، ثم إن الناس حملوا فكان في أوائلهم، ثم حمل العدو، وانكشف الناس فكان في حماتهم، قال: فوالله ما زال هكذا دأبه حتى رأيته صريعاً فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة.

الهمم تتفاوت ليس في الإنسان صاحب الرسالة فحسب! بل والله تتفاوت حتى في الحيوانات على وجه الأرض.. ألم يبلغك أن العنكبوت من حين يولد ينسج لنفسه بيتاً، ولا يقبل مِنّة الأم.. والحية تتطلب ما حفر غيرها إذ طبعها الظلم.. والغراب يتبع الجيف.. والصقر لا يقع إلا على الحيّ.. والأسد يأكل الجائف.. والفيل يتملّق حتى يأكل.. والخنفساء تطرد فتعود، حتى قال الشاعر:

إن الهوان حِمار البيت يألفه ... والحُرُّ ينكره والفيل والأسد
ولا يقيم بدار الذل يألفها ... إلا الذليلان عيرُ الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برُمّته ... وذا يُشجُّ فما يأوي إلى أحد

اجتمع عبد الله بن عمر، وعروة بن الزبير، ومصعب بن الزبير، وعبد الملك ابن مروان بفناء الكعبة، فقال لهم مصعب: تمنّوا، فقالوا: ابدأ أنت، فقال: ولاية العراق، وتزوّج سكينة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله، فنال ذلك وأصدق كل واحدة خمسمئة ألف درهم، وجهّزها بمثلها.. وتمنّى عروة بن الزبير الفقه، وأن يُحمل عنه الحديث فنال ذلك، وتمنّى عبد الملك الخلافة فنالها، وتمنّى عبد الله بن عمر الجنّة..

وما نيل المطالب بالتمني ... ولكن تُؤخذ الدنيا غِلابا
وما استعصى على قوم منالٌ ... إذا الإقدام كان لها ركابا

قيل للربيع بن خثيم: لو أرحت نفسك! قال: راحتها أريد.

وقال أحمد بن داود: دخلت على أحمد بن حنبل الحبس قبل الضرب، فقلت له في بعض كلامي: يا أبا عبد الله: عليك عيال، ولك صبيان، وأنت معذور.. كأني أسهّل عليه الإجابة، فقال لي: «إن كان هذا عقلك يا أبا سعيد فقد استرحت».

وقد قيل للإمام أحمد رحمه الله تعالى: متى يجد العبد طعم الراحة؟ فقال: عند أول قدم في الجنة..

وقد طوّف بك **ابن القيم** ـ رحمه الله تعالى ـ فقال: وقد أجمع عقلاء كل أمة أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن من آثر الراحة فاتته الراحة، وأن بحسب ركوب الأهوال، واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة، فلا فرحة لمن لا هم له، ولا لذة لمن لا صبر له، ولا نعيم لمن لا شقاء له، ولا راحة لمن لا تعب له، بل إذا تعب العبد قليلاً استراح طويلاً، وإذا تحمّل مشقة الصبر ساعة قاده لحياة الأبد، وكل ما فيه أهل النعيم المقيم فهو صبر ساعة، والله المستعان.. وكلما كانت النفوس أشرف، والهمة أعلى، كان تعب البدن أوفر، وحظه من الراحة أقل، كما قال المتنبي:

وإذا كانت النفوس كباراً ... تعبت في مرادها الأجساد

وشم ابن نباتة السعدي طعم المجد في الهمة فقال مذكّراً:

أعاذلتي على إتعاب نفسي ... ورعيي في الدجى روض السهاد
إذا شامَ الفتى برق المعالي ... فأهون فائتٍ طيب الرقاد

وقد قال أبو بكر الصديق يصف القعقاع: صوت القعقاع بن عمرو التيمي في الجيش خير من ألف رجل.. وكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص حين طلب منه المدد في فتح مصر قائلاً: أما بعد: فإني أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل منهم مقام الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن خالد.

وقال رضي الله عنه يوماً لأصحابه: تمنّوا، فقال رجل: أتمنّى أن هذه الدار مملوءة ذهباً أنفقه في سبيل الله عز وجل، وقال آخر: أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤاً وزبرجداً وجوهراً أنفقه في سبيل الله.. ثم قال: لكني أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح...

وقال يحيىٰ بن معين إمام المحدثين: رأيت بمصر ثلاث عجائب: النيل، والأهرام، وسعيد بن عفير. اهـ.

ولو سألتني عن الأمنية التي تخالج قلبي لما قلت لك سوى أمنية عمر رضي الله عنه، وهل الرجال إلا بعض أفراح الدنيا!..



 أرواح رحلت من عالم الأرض!!

أجمل هدية يقدمها كاتب لقرائه حين يبعث إليهم أرواح آبائهم وأجدادهم من المقابر ليجعلها شواهد حاضرة، وقدوات ماثلة للأجيال لتستقي من المعين الذي شربوا منه، وترد بإذن الله تعالى إلى المعالي التي عانقوها..

قال المزني رحمه الله تعالى يصف همة الشافعي للعلم، وشهوته لمسائله: سئل الشافعي: كيف شهوتك للعلم؟ قال: أسمع بالكلمة مما لا أسمعه، فتود أعضائي أن لها أسماعاً تتنعّم به ما تنعمت به الأذنان.. قيل له: كيف حرصك عليه؟ قال: حرص الجموع المنوع في بلوغ لذته للمال.. قيل له: فكيف طلبك له؟ قال: طلب المرأة المضلة ولدها وليس لها غيره.

وهذا محمد بن سلام شيخ البخاري رحمه الله تعالى كان مرة في حال الطلب جالساً في مجلس الإملاء والشيخ يحدث ويملي، فانكسر قلمه، فأمر أن ينادى: قلم بدينار، فتطايرت إليه الأقلام.

وقال علي بن أحمد الخوارزمي: كنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مرقة، نهارنا ندور على الشيوخ، وبالليل ننسخ ونقابل، فأتينا يوماً أنا ورفيق لي شيخاً، فقالوا: الشيخ مريض، فرأيت سمكة أعجبتني فاشتريناها فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلس بعض الشيوخ فمضينا، فلم تزل السمكة ثلاثة أيام، وكادت تنتن، فأكلناها نيئة لم نتفرّغ نشويها، ثم قال: لا يستطاع العلم براحة الجسد!.

وهذا هو الإمام سُليم بن أيوب الرازي كان يحاسب نفسه على الأنفاس، لا يدع وقتاً يمضي بغير فائدة، إما ينسخ، أو يقرأ، أو يدرس.. وكان يقرأ في طريقه كثيراً.

وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي يقول: أثقل الساعات عليّ ساعة آكل فيها.

وقال عمّار بن رجاء: سمعت عُبيد بن يعيش يقول: أقمت ثلاثين سنة ما أكلت بيدي بالليل، كانت أختي تلقّمني وأنا أكتب الحديث..

وكان داود الطائي يستفّ الفتيت ويقول: بين سف الفتيت وأكل الخبز قراءة خمسين آية.

وقال ابن عقيل: وأنا أقصّر بغاية جهدي أوقات أكلي، حتى إني أختار سف الكعك، وتحسّيه بالماء على الخبز لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ، توفراً على مطالعة أو تسطيراً لفائدة لم أدركها.

وذكر بعض الجالسين مع شعبة حديثاً لم يسمعه فجعل يقول: «واحزناه!» وكان يقول: إني لأذكر الحديث فيفوتني فأمرض. حتى قال شعبة عن حالهم: ما رأيت أحداً قط يعدو إلا قلت: «مجنون أو صاحب حديث».

وذكر عبد الرحمن بن تيميّة عن أبيه قال: كان الجد إذا دخل الخلاء يقول: اقرأ في هذا الكتاب، وارفع صوتك حتى أسمع.

هذه أخبار أجدادك أيها الطامح إليها، المشتاق لبلوغها، ذكّرتك بها، وبعثت لك حياتهم بالأمس، رحلوا ولا زالت الذكريات على الأرض شاهدة على آثار الرجال!! آهٍ من قلب لا يستيقظ! ومن عين لا تبكي كسلها وتوانيها!

آهٍ على سير الرجال حين ينفضون غبار الوهن، ويطيرون بالأشواق إلى المعالي..

آهٍ ليتني هذا المساء أراهم فأكحّل عيني بهم، ما ماتت أمة وهؤلاء أسلافها! وما رحل رجال وهذه آثارهم!..

* * *

إضاءة: لا ينال العلم براحة الجسم.

١٦ همم تناطح السحاب!!

لا يتصور الإنسان همم الرجال على حقيقتها حتى يرى آثار الرجال التي كتبت تاريخها قبل أن ترحل من على وجه الأرض..

رحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد، ورحل أبو أيوب الأنصاري من المدينة إلى عقبة بن نافع في مصر ليروي عنه حديثاً واحداً، فقدم مصر ونزل عن راحلته، ولم يحل رحلها حتى سمع الحديث، ثم قفل راجعاً إلى المدينة.. وهكذا هي الهمم تصنع ما هو شبه مستحيل في عالم اليوم.. فلله درها حين تترحّل بأصحابها لتكتب بعض تاريخ الرجال..

وقد أفضت همة المعالي بمالك حتى باع سقف بيته من أجل الحديث، فصار الموطأ اليوم بعض آثار تلك المعاناة..

قيل لبعض هؤلاء: بِمَ أدركت العلم؟ قال: بالمصباح والجلوس إلى الصباح.. وقيل لآخر فقال: بالسفر، والسهر، والبكور.. وحكت فاطمة بنت الشافعي أنها في ليلة واحدة أسرجت لأبيها سبعين مرة.. وكان البخاري تنازعه لذائذ العلم فيقوم من على فراشه ويوقد سراجه ويكتب خاطرته، يفعل ذلك ما لا يقل عن عشرين مرة في الليلة الواحدة.. فماذا بقي من الليل؟! وماذا فاته بذلك؟!.

وقال عبد الرحمن بن قاسم أحد أصحاب مالك: كنت آتي مالكاً غلساً فأسأله عن مسألتين، وثلاث، وأربع، وكنت أجد منه ذلك الوقت انشراحاً، فكنت

آتي كل سحر.. فتوسدت مرة عتبته فغلبتني عيني فنمت، وخرج مالك إلى المسجد ولم أشعر به، فركضتني جارية سوداء له برجلها، وقالت: قم إن مولاك قد خرج ليس يغفل كما تغفل أنت، اليوم له تسع وأربعون سنة قلّما صلى الصبح إلا بوضوء العتمة.. ظنّت الجارية أنه مولاه من كثرة اختلافه إليه.

وصدق الزمخشري واصفاً تلك اللذة التي يجدها أصحابها من أثر تلك الهمم:

سهري لتنقيح العلوم ألذّ لي ... من وصل غانية وطيب عناقِ
وتمايلي طرباً لحل عويصة ... أشهى وأحلى من مُدامة ساقي
وصرير أقلامي على أوراقها ... أحلى من الدُّوكاة والعُشّاق
وألذ من نقر الفتاة لدفها ... نقري لأُلقي الرمل عن أوراقي
أأبيت سهران الدُّجى وتبيته ... نوماً وتبغي بعد ذاك لحاقي؟!

وتحدث النووي عن نفسه في فترة طلبه للعلم قال: بقيت سنتين لم أضع جنبي على الأرض.. وصدق رحمه الله تعالى فقد أخبرنا بصدقه (المجموع)، و(شرح مسلم)، و(تهذيب الأسماء واللغات)، و(رياض الصالحين)..

قال السبكي حاكياً عن ابن دقيق العيد قوله: أما دأبه في الليل علماً وعبادة فأمر عجاب، ربما استوعب الليل فطالع فيها المجلد أو المجلدين، وربما تلى آية واحدة فكررها إلى مطلع الفجر..

وقد بلغك أن هشيم كان سبب موته ازدحام طلاب العلم والمعالي عليه فطرحوه من على حماره فكان سبب موته..

وبلغت الهمة ومسارعة الزمان أن أبا بكر الخياط النحوي كان يدرس جميع أوقاته حتى في الطريق، وكان ربما سقط في جرف أو خبطته دابة!

وحكي عن ثعلب أنه كان لا يفارقه كتاب يدرسه، فإذا دعاه أحد إلى دعوة شرط عليه أن يوسّع له مقدار المتكأة من الجلد يضع فيها كتباً ويقرأ.. وصدق قائلهم:

ما شاب عزمي ولا حزمي ولا خُلُقي
ولا ولائي ولا ديني ولا كرمي
وإنما اعتاض راسي غير صبغته
والشيب في الرأس غير الشيب في الهمم

ويحسن بي وبك أن أختم هذه الأسطر بقصة أبي الريحان البيروني؛ فإنه دُخل عليه وهو يجود بنفسه في آخر رمق من حياته؛ فقال للداخل «كيف قلت يوماً حساب الجدات الفاسدة؟ فقلت له إشفاقاً عليه: أفي هذه الحالة؟ قال لي: يا هذا أودّع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ألا يكون لي خيراً من أن أرحل وأنا جاهل بها؟! فما خرجت من عنده حتى سمعت الصراخ عليه. هذه الهمم وإلا موتاً عاجلاً يغسل وهن العجز والكسل والدعة!!».

ورحم الله **ابن الجوزي** حين قال: الزهاد في مقام الخفافيش، قد دفنوا أنفسهم بالعزلة عن نفع الناس، وهي حالة حسنة إذا لم تمنع من خير، من جماعة واتباع جنازة وعيادة مريض، إلا أنها حالة الجبناء، فأما الشجعان فهم يتعلمون ويعلمون، وهذه مقامات الأنبياء عليهم السلام.

إذا أنت لا تُرجى لدفع مُلمّة ... ولم يك للمعروف عندك موضعُ
ولا أنت ذو جاهٍ يُعاش بجاهه ... ولا أنت يوم البعث للناس تشفعُ
فعيشك في الدنيا وموتك واحد ... وعودُ خلالٍ من وصالك أنفع



١٧ المصابيح المضيئة!!

لا أتخيل إنساناً على وجه الأرض يعيش بلا أهداف.. بل قد لا تجد إنساناً كذلك.. لكن المشكلة تبدو خطيرة جداً عندما تدرك أن كل من يقول لك: إنه يعيش لأهداف يجري على ساحات الدنيا لهثاً مشغولاً لا لشيء لكن لسراب عنده يقال له: الأهداف.. هؤلاء كلهم أو أكثرهم يلهثون وراء أهداف بل يلهثون وراء السراب الممتد في الأرض القاحلة الخالية من البناء.. هل رأيت تلك الصورة وأمعنت فيها؟ إنها هي صورة مماثلة لحياة كثير من الناس.. يهرولون في ساحات الدنيا، بل قل يلهثون لكن إلى سراب، هذه هي الحقيقة التي يعيشها كثير من الناس على وجه هذه الأرض..

الأهداف تلك الأمنية الغائبة عن حياتنا.. ذلك الأمل الذي يمسك بعناق الحياة ويديرها إلى آماله وطموحاته..

الأهداف الأفراح التي تعانق كل إنسان جادٍّ على الأرض..

الأهداف هي المعنى الكبير للحياة.. فياليت شعري كيف يرضى من جاء لخلافة الأرض أن يعيش هملاً.. وتمضي به الحياة كلها لا إلى شيء؟!.. ليتني أملك هذا المساء أن ألفت نظر كل سائر على الطريق إلى عالم الأفراح ليبدأ حياته من جديد، ويرمي بتلك السنين وراء ظهره فليست هي من عمره في الحقيقة.

الأهداف روح الإنسان، وشغاف قلبه، وأمنياته وتطلعاته.. ليتك تدري هذه اللحظات ما هي الأفراح التي أحملها بين يدي لأزفها إلى عقلك لترى عالمك الجديد في حياتك الدنيا..

الأهداف هي التي جعلت من **أبي علي القاليّ** البغدادي يأتي في شبابه مبكراً إلى درس شيخه ابن مجاهد، وحين ذهب إليه قبل الفجر ليقرب منه أثناء التحصيل قال: فلما انتهيت إلى الدرب الذي كنت أخرج منه إلى مجلسه ألفيته مغلقاً وعسر عليّ فتحه، فقلت سبحان الله! أبكّر هذا البكور ولا أقدر على القرب منه!! فنظرت إلى سَرَب - أي حفير تحت الأرض - بجنب الدار فاقتحمته أشد اقتحام، فلما توسطته ضاق بي ولم أقدر على الخروج! ولا على النهوض! فاقتحمته أشد اقتحام حتى نفذت بعد أن تخرقت ثيابي! وأثّر السَّرب في لحمي حتى انكشف العظم! ومنَّ الله عليّ بالخروج، فوافيت الشيخ على هذه الحال.. فهذه ندوب جسدي تدخل معي قبري!..

الأهداف ذلك السحر الذي يجعل الإنسان يركب المخاطر لا يرى غير أهدافه التي يريد!..

الأهداف هي السر الكامن في حياة كل ناجح، ليتك تدري هذه اللحظة أن كل من سمعت بنجاحه أو بلغك تفوقه أو رأيت تميزه كلهم كانت أهدافهم تضرب فيهم بسياط من حديد نحو المعالي، فكانوا واقعاً كما كانت أهدافهم حلماً رائعاً..

الأهداف هي التي هتفت بالإمام أحمد رحمه الله تعالى فرؤي في شوارع بغداد على كبر وهو ممسك ثوبه بفمه ويعدو حتى قال بعضهم: إلى متى هذا يا إمام؟ فقال كلمته الشهيرة: مع المحبرة إلى المقبرة.

الأهداف فقط هي التي جعلت من جعفر بن دُرُسْتُوَيه يجلس في مجلس علي ابن المديني لطلب العلم عصر اليوم ينتظر درس عصر الغد مخافة أن يُسبق على القرب من الشيخ..

الأهداف فقط هي التي جعلت عبد العزيز بن محمد القروي الفاسي يقول لما دخل عليه بعض الفقهاء وكتب الفقه مبسوطة بين يديه، وأعراقه تقطر عليه، وكساؤه في غاية ما يكون من الوسخ! فقال له ذلك الفقيه: ارفق بنفسك، واغسل كساءك.. فقال: لي ستة أشهر أروم غسلها وما وجدت لذلك سبيلاً من أجل هذا الشغل - يعني الانهماك في العلم.. قلت: صدق والله الذي لا إله إلا هو، ولولا هذه الهِمّة، وهذا الشغف، وتلك المعالي لما حال جمال ذكره على اتساخ ملابسه فلله دره!!..

الأهداف هي التي تصنع الفرق بين الرجال، فتهتف بقوم إلى معانقة المجد، وتهتف بآخرين للنوم على تراب الأرض.. لله درها كم تجبر الأجسام على التطلع إلى رتب الأفاضل الأخيار؟.

الأهداف هي التي جعلت الحافظ أبا العلاء الهمداني يبيع بيته في ضحى النهار، ذلك أنه نودي في بغداد على بيع كتب ابن الجواليقي، فحضر البيع الحافظ أبو العلاء الهمداني، فنادوا على قطعة منها بستين ديناراً فاشتراها - والذي يبيت ليالي لا يجد عشاء ليلة من أين له ستين ديناراً؟ - وكان الأجل أسبوعاً، فاشتراها رحمه الله تعالى وغادر إلى منزله في همدان وما أن دخل همدان، حتى نادى على بيع داره فبلغت ستين ديناراً، فقال: بيعوا.. قالوا: تبلغ أكثر من ذلك فانتظر.. قال: بيعوا، فباعه بستين ديناراً فقبضها، ثم رجع إلى بغداد فدخلها يوم الخميس فوفّى الثمن، ولم يشعر أحدٌ بحاله إلا بعد مدة.. قال ابن الجوزي: وبلغني أنه رؤي في المنام بعد موته في مدينة جميع جدرانها من الكتب، وحوله كتب لا تُحدّ، وهو مشتغل بمطالعتها؛ فقيل له: ما هذه الكتب؟ قال: سألت الله أن يشغلني بما كنت مشغولاً به في الدنيا فأعطاني. اهـ.

وقائلة: لم غيرتك الهمومُ ... وأمرك ممتثل في الأمم

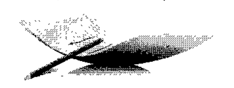
فقلتُ: ذريني على غُصّتي ... فإن الهموم بقدر الهمم

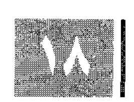
ليتك أيها الهمداني تكون حيّاً إلى اليوم لما وسعني والله غير الرحلة إليك في أي أرض كنت؛ لا لشيء إلا لتقبيل وجهك.. فديت وجهاً يؤثر الأوراق على خشب الدار!..

أهدافك هي مصابيحك المضيئة.. وأنت الحُلُم الذي نبحث عنه.. وما مثلي هذه اللحظات التي تقرأ فيها أسطري هذه، ومثل أشواقي وأمنياتي إليك إلا كأشواق الخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين قال لأصحابه تمنوا.. فتمنوا.. فقال: أما أنا فأتمنى داراً كهذه مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة عامر بن الجراح!!..

ما قرت عيني ولا امتلأت آمالاً أحب إليها من رجال يمشون على الأرض ورؤوسهم تطاول السماء أمانٍ وأحلام!.. لكن لدينهم.. لمنهجهم.. لأمتهم.. لرسالتهم... لمجدهم...

وا شوقاه إليهم!! وا لهفاه عليهم!!





مشروعك الشخصي

لا يتصوّر إنسان بلا مشروع! كما هو القول: لا يمكن أن يوجد إنسانٌ بلا أهداف!.. في إمكان كل إنسان على وجه الأرض أن يكون مشروعاً بذاته في بناء الأمة العريض.. كل رجائي أيها القارئ لأسطري في هذه الدقائق ألا تنسلخ من هذا الهم أولاً.. وألا تستصغر نفسك فتكبر في عينك هذه الفكرة ثم لا تكون شيئاً!

بإمكانك أن تكون مشروعاً بذاته.. ولا يهمنّك في البداية حجم المشروع أو أثره في بناء نفسك وأمتك.. إنما لتكن همتك مصروفة في البداية إلى البداية الجادة، والتحليق في سماء العاملين.. ثم إن هذه البداية ستصنع منك عالمَاً لم تكن أنت تفكّر فيه، أو تحلم بالوصول إليه.. لكنها البدايات تبدو أولاً في حجم تضحك منه النفس، ثم يأتي زمن تتعجّب منه الأمة..

لعلك سمعت بخبر الأمَة السوداء صاحبة المشروع البسيط في تفكيرنا.. المرأة السوداء الذي كان مشروعها الذي عاشت من أجله فقط هو «العناية بالمسجد»؛ كانت تقم المسجد.. عاشت لمشروعها طيلة حياتها، وكان هدفها الذي رسمته للوصول من خلاله إلى جنات النعيم.. وليس مهمّاً كم حجم مشروعك؟ لكن المهم بحق هل جعلت حياتك مشروعاً تسهم به في بناء أمتك.. إن الإسلام يحتفل بكل صاحب فكرة ومشروع بغض النظر عن حجم مشروعه وأثره في الواقع.. وإن كان ذلك له مساحة غير ما أريد تعزيزه في هذه اللحظة.

غادرت صاحبة المشروع الأرض، ورحلت من على الدنيا في ساعة متأخرة من الليل، جعلت من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يجهزونها ثم يصلون عليها ويدفنونها قبل أن يبلِّغوا النبي ﷺ بخبرها خشية إيذائه في تلك الساعة المتأخرة.. وفي الصباح علم النبي ﷺ بخبر المرأة، فلام الصحابة، وعتب عليهم، وقال متأسفاً في عدم شهادته لوداعها: «**أفلا آذنتموني**» - أي: أفلا أعلمتموني حتى أشهد رحيلها وأشارك فيه - ثم ما لبث أن توجه إلى قبرها، وهناك صلى على قبرها... إشعاراً بأهميتها في الإسلام، وبعظيم مشروعها الذي كانت تعمل عليه.. وهل الإسلام إلا بعض هذه الأعمال؟!..

ألم يبلغك أن الله تعالى غفر لزانية بغي نزلت إلى بئر تروي عطشها، ولما خرجت إذا بكلب يلهث من شدة العطش؛ فما كان منها إلا أن أخذت موقها - أي خفها - ثم نزلت وحملت فيه ماءً ثم أسقت ذلك الكلب، فغفر الله تعالى لها كبيرة الزنى مقابل حفنة ماء لأنجس حيوان على الأرض.. وهل الإسلام إلا بعض مشاعر العطف والرحمة؟!..

ألم يبلغك خبر ذلك الرجل الذي مر فرأى في طريقه غصن شوك على الأرض يحول بين الناس وبين طريقهم، فنزل إليه فقطعه فغفر الله تعالى له.. وهل الإسلام إلا بعض مشاعر الإخاء والحب؟!..

ألم يبلغك خبر ذلك الرجل الذي قال فيه رسولك ﷺ: «**إن رجلاً لم يعمل خيراً قط، وكان يداين الناس فيقول لرسوله: خذ ما تيسر واترك ما عسر، وتجاوز لعل الله أن يتجاوز عنا، فلما هلك قال الله: هل عملت خيراً قط؟ قال: لا إلا أنه كان لي غلام وكنت أداين الناس، فإذا بعثته يتقاضى قلت له: خذ ما تيسر واترك ما عسر وتجاوز لعل الله أن يتجاوز عنا، قال الله: قد تجاوزت عنك**».. وهل الإسلام إلا بعض آثار الرحمة؟!..

هؤلاء كلهم كان للواحد منهم مشروعٌ يسيرٌ دخل منه أبواب الجنة، ورحل من

الدنيا وهو محفوف بمغفرة الله تعالى، وعناية ملائكة الرحمة به.. ورضوان الله تعالى عليه..فهل بقي أبلغ من ذلك حتى تعرف نفوسنا قيمة العمل وأهمية المشاريع؟!...

فهل يجوز لي بعد هذا الطواف بك في عالم المشاريع الصغيرة في حجمها، الكبيرة في معناها وأثرها: أن أرحل بك إلى عالم المشاريع، وأتحدث معك فيها بلهف النفس الأبية الواثقة من خطوها إلى المعالي؟.. أرجو ذلك!!..

إذاً لتسمح لي أن أدلف على أذنك بسؤال أراه في غاية الأهمية: هل لديك مشروعٌ عمريٌ نذرت أن تعيش حياتك كلها من أجله؟ ودعك من الإجابة؛ فقد لا تكون من الأهمية بمكان الآن على الأقل! لكن يهمني جداً حديث نفسك إليه بالأماني.. هذا في البداية كافٍ جداً..

ولعلك تسأل قائلاً: ماذا تقصد بمشروع العمر؟ ولك أن أجيبك بأن مشروع العمر هو: مشروع تتضح في ذهن صاحبه أهدافه، وتستولي فكرته على فكره وعقله، ويبذل له جميع طاقاته.. هذا هو مشروع العمر فقط الذي أحدثك فيه ونفسي تتوق إلى نهاياته في القريب العاجل..

عذراً إليك فأنا أتحدث إليك هذه اللحظة ولا أعرف تاريخك! فقد تكون في البدايات.. وقد تكون في النهايات.. وقد تكون تبحث لاهثاً عن هذا المعنى الذي يجعلك كبيراً بحق، لكنك لا تعرف كيف تبدأ؟..

ويهمني جداً ألا تفوتك الشروط الأساسية في صناعة هذا المشروع؛ وهو أنه لا بد من مشروع يعبر عن قدراتك بحق، ويتوافق مع ميولك ورغباتك، وتهفو نفسك إلى الإبداع فيه، وتجد فيه نفسك بأجمعها.. ودعك من التقليد البارد فهو لا يعدو كونه محاولة يائسة في زمن فائت!!

وإني أحذرك غاية التحذير: إياك أن تشتت نفسك في مشاريع عدة؛ فهذا في

الغالب عسير النجاح.. وما دفعني إلى تحذيرك عظيم الحب الذي يخالج قلبي تجاهك، وشغفي إلى رؤية نجاحك.. وأقول لك من واقع تجربتي الشخصية: ما هتفت الحقيقة بكلمة أصدق في معنى الإنجاز هتافها بكلمة التركيز.. ليتني كنت أعرف منها بالأمس ما أعرف اليوم!..

دائماً أشعر أن الناس في هذه الأيام على وجه الخصوص يحتاجون وبشدة إلى الكلمة التي تحلّق بهم في المعالي، وتخلق منهم أناساً قادرين على الكتابة على وجه الأرض، أكثر من حاجتهم إلى الكلمة التي تدلهم على كيف ينجحون؟ وهي من الأهمية بمكان، لكن أسبقية تلك الكلمة في نظري جعلتهم يتعطشون إليها أكثر، ثم إذا لا مست قلوبهم أقبلوا إليها إقبال الظمآن إلى الماء البارد في يوم قائظ.. في لحظة هم أحوج ما يكون إلى معرفة كيف يصلون...

فإن افترضت أنني أكتب لك بعد قراءة هذه الأسطر بزمن، بعد أن لامست هذه الكلمات شغاف قلبك، وأشعلت فيه نار التطلع إلى المعالي.. وأنت أحوج ما تحتاج إلى كيف تبدأ؟ فيمكن أن أقول لك: ابدأ أولاً بنفسك.. فكّر فيها طويلاً! وتساءل: تُرى ما هي المشاريع التي أشعر بأنها تغمرني؟!.. تُرى ما هي المشاريع التي حين أسمع حديث رجلين فيها أمنحهم أذني، ومشاعري، وقلبي لسماع حديثهما..؟ تُرى ما هو الموضوع أو الكلمة أو المشروع الذي أجدني أحوج إلى القراءة عنه أو الاطلاع إليه أو التسلل من خلال عناوينه إلى معناه؟... هذه التساؤلات في البداية ستفتح لك الطريق، وتدلك على معالم الروح.. وتحلّق بك إلى أمنياتك الحقيقية...

ثم إذا وجدت ذلك وتعرّفت على مشروعك بهذه التساؤلات، أو استشارة حبيب إلى قلبك يعرف واقعك، ويدرك قدراتك وتوجهك.. ابدأ ولا تخف في بداية الطريق.. فدائماً ما يصحب الجِدَة خوف المجهول.. لكن عش وأنت في بدايتك الأحلام، والأماني، والمعاني والنهايات... عشها لحظة بلحظة.. نم

عليها.. ثم استيقظ عليها.. وكل يوم بإمكانك أن تقطع خطوة واحدة على الأقل.. وقد بلغك: أن طريق الألف ميل يبدأ بخطوة.. وقد رأت عينك: أن قطرات الماء المتتابعة تحفر أخدوداً في الصخر الأصم!! وقبل ذلك قال نبيك ﷺ: «**أدومه وإن قل!**».

فإن وصلت في يوم من الأيام وأنا حي فلا تحرمني لذة نجاحك.. دعني أعيش مثلما يعيش الناجحون... فإن بلغك رحيلي عن الدنيا فأرجوك أحيني على وجه الأرض مرة أخرى.. تدري كيف؟ انقل فكرة نجاحك إلى غيرك.. وسّع في أثرك.. حاول أن تأخذ بيد كل من تحب إلى ذوق هذه اللذة.. حينها تكون أحييتني مرة أخرى...



١٩ شهادات المتأخرين

الآثار الكبيرة تغور في حرث الأرض حتى تخرج الثرى القديم، وتنبت الأرض من جديد!..

والآثار الكبيرة تخط في القلب فتبقى حية حتى بعد موت من خطها بأزمان!

والآثار الكبيرة تُبكي القارئ لها ولو بعد مئات السنين!..

قلت هذا لأن عيني تدفقت بالدموع هذه اللحظات، وأنا أقرأ شهادات الطلاب على معلميهم.. شهادات صغار الأمس كبار اليوم على كبار الأمس وكبار اليوم...

يقول التلميذ **الغزالي** وهو على مقاعد الدراسة: سألني معلمي مدرس النحو وأنا طالب في المرحلة الابتدائية قائلاً: أعرب يا ولد «رأيت الله أكبر من كل شيء» فقلت على عجل: رأيت فعل وفاعل، والله منصوب على التعظيم! وحدثت ضجة من الطلبة، ونظرت مذعوراً إلى الأستاذ فرأيت عينيه تذرفان!! كان الرجل من أصحاب القلوب الخاشعة، وقد هزه أني التزمت الاحترام مع لفظ الجلالة ـ كما علموني ـ فلم أقل: إنه مفعول أول، ودمعت عيناه تأدباً مع الله تعالى!! كان ذلك من ستين سنة أو يزيد.. رحمه الله وأجزل مثوبته!.

وقال التلميذ **ابن الجوزي** وهو في حلق العلم: لقيت مشايخ أحوالهم مختلفة يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفعهم لي في صحبته العامل منهم

بعلمه وإن كان غيره أعلم منه.. ولقيت جماعة من علماء الحديث كانوا يتسامحون بغيبة يخرجونها مخرج جرح وتعديل، ويأخذون على قراءة الحديث أجرة، ويسرعون الجواب لئلا ينكسر الجاه وإن وقع الخطأ.. ولقيت عبد الوهاب الأنماطي فكان على قانون السلف لم يُسمع في مجلسه غيبة، ولا كان يطلب أجراً على سماع الحديث، وكنت إذا قرأت عليه أحاديث الرقائق بكى واتصل بكاؤه، فكنت وأنا صغير السن يعمل بكاؤه في قلبي، ويبني قواعد، وكان على سمت المشايخ الذين سمعنا أوصافهم في النقل.. ولقيت أبا منصور الجواليقي فكان كثير الصمت شديد التحري فيما يقول متقناً محققاً، وربما سئل المسألة الظاهرة التي يبادر بجوابها بعض غلمانه فيتوقف فيها حتى يتقن، وكان كثير الصمت، فانتفعت برؤية هذين الرجلين أكثر من انتفاعي بغيرهما. اهـ.

وساق التلميذ **عبد الرحمن بدوي** المصري عن معلمه مصطفى عبد الرازق: «لقد كان النبل كله، والمروءة كلها، كان دائماً هادئ الطبع، باسم الوجه، لا يكاد يغضب، وإن غضب لم يعبّر عن غضبه إلا بحمرة في وجهه، وصمت كظيم، لقد كان آية في الحلم والوقار.. لكنه وقار عفو الطبع، لا تكلّف فيه ولا تصنّع، وفي حالات الأنس لمحدثيه من الأصدقاء أو التلاميذ كان ودوداً، محباً للسخرية الخفيفة.. وكان آية في الإحسان، ما لجأ إليه مظلوم إلا حاول إسعافه، أو صاحب حاجة إلا بذل ما استطاع.. وكم له من أيادٍ بيضاء على طلابه؟!» اهـ.

هذه شهادات المتأثرين بمعلميهم.. ولا يسبق إلى عقلك أن هذه ليست لك؟.. صحيح أنها شهادات طلاب، وتعني صاحب الرسالة في المقام الأول.. لكننا كلنا آباء أليس كذلك؟! كلنا لنا أصدقاء أليس كذلك؟! كلنا لنا زملاء أليس كذلك؟! كلنا نكتب بآثارنا لوحات في أعين الآخرين تكون غداً عين هذه الشهادات في أفواه المتحدثين بها..

هذه الصفحات هي تاريخ لأصحابها، ولا إخالك إلا منهم في أي أرض كنت، وفي أي عمل أنت! دعك من كونهم تلاميذ مدرسة هم كذلك تلاميذ حياة، وأنت واحد ممن يعلّم ويتعلّم في مدرسة الحياة.. ولئن حُجِبَت عنك شهادات الألسن إلى اليوم فلعلها لا تحجب غداً حين ترحل من الدنيا، والأسطر التي تُكتب هي ذكرى حسنة لمقامك، وحسنات عريضة لحياتك.. وأصحاب المعالي يرحلون بأجسادهم، أما أرواحهم فهي حية في العالمين ما بقيت الدنيا.

ليتني قرأت هذه الشهادات بالأمس مثل ما قرأتها اليوم!!..



٢٠ من أفواه الهزائم تُلتقط الانتصارات

العثرات في حياة الرجال هي شرارة النجاح.. وهل يتصوّر إنسان أن يتعثّر قاعدا! أو يسقط نائم، كلا! حين يحاول إنسان على وجه الأرض فيتعثّر فتلك اللحظة بعينها هي لحظة الانتصار الحقيقي.. اللحظات التي يسقط فيها الإنسان بعد المحاولة هي اللحظات التي بدأت فيها حياته تخطو إلى المجد، وتتطلّع للمعالي.. أسرار النجاح كامنة في الخطوة الجريئة بعد الهزيمة، والنهوض من الكبوة بعد السقوط.. والتقاط النصر من أفواه الهزائم.

ابحث عن الفرصة في كل شيء.. واعلم أن الناجحين إذا دهمتهم الأحداث، وحلّت بهم المصائب، تجدهم في ظل هذه الظروف يرددون: ما الفرص الإيجابية التي تحملها هذه الأحداث، وتقبل بها هذه الكوارث؟ وهذا التفكير بعينه هو الذي يلتقط الانتصارات من أفواه الهزائم بصدق!..

من قال لك - أيها الإنسان - إن الهزائم نهاية تاريخك؟ من قال لك: إن العثرات لا قيام بعدها؟ من صوّر لك هذه السلبية وحاول إقناعك بها؟ قم مفعماً بالأمل، قم واركض مرة أخرى، وحاول مراراً، فأسرار الأمل والفوز مخبوءة في ثنايا تلك المحاولات الجديدة من حياتك..

لو كانت حلاوة الانتصارات تُذاق من أول وهلة لما صار طعمُها رائعاً في النفس، ومذاقها جميلاً على القلب.. ولا هتفت بها الروح، وإنما سر جمالها

وروعتها، وحلاوتها في ثنايا الإخفاقات، والهزائم التي تحيل معانيها فيما بعد إلى روائع من اللذة لا يعرفها إلا من ذاقها، وجرّب آثارها.

من قال لك: إن شجاعتك ضاعت بتلك الزلة؟ أو وهنت قوتك بتلك المحاولة؟ أو إن رأسك طأطأ علوه بعد تلك الهزيمة؟ أنت في تلك اللحظات فقط إنسان، وقبل ذلك من سقط المتاع لا أحد يعرفك، فكيف تكبح جماحك هذه الإخفاقات؟ أو تؤثّر فيك تلك الهزائم؟ قم فابدأ الرحلة، وحاول، وابعث في نفسك الأمل... فالنصر قاب قوسين! قم فلو تعلم قرب الفرج لما توقفت! ولو كنت تدري كم بينك وبين النور لما انتظرت! قم فقد قال رسولك ﷺ: «**واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً**».. قم فلو كان النصر، والتوفيق، والنجاح يتنزّل بارداً، لا عراك فيه، ولا محاولة في ثناياه لما كان حلواً رائع المذاق إلا في أفواه الكسالى! قم فو الله لو كان الانتصار في متناول كل أحد لما حدثتك البتة.

هب أنك شاركت في مسابقة فأخفقت! أو أصابتك مصيبة في جسدك أو مالك؛ فهل تغيّر العالم؟ أو انطمست معالم الكون؟ أو تبدلت الدنيا؟ كلا! بإمكانك في تلك اللحظات التي ترى أن سعة رقعة الظلام امتدت فغطت حياتك أن تقشعها من جديد، وليس هذا فحسب بل تمزقها بيديك؛ فالمؤمن بالله تعالى، الراضي بقدره المطمئن به يمكنه أن يعود فيكتب بعد العثرات تاريخه من جديد!..

قم فالجمهور الذي رأيته مشفقاً لحالك، ضاحكاً من مآلك سترى أضعافه فيما بعد ضاحكاً معجباً بك، مبهوراً من تلك اللحظات المشرقة في حياتك.. والرجال على وجه الأرض لا ترغمها على الإعجاب والتكبير إلا الانتصارات المخطوفة من أفواه الهزائم فحسب!..

قم فالإنسان لا يسقط إذا لم تنهزم روحه، ولو تساقط جسده أشلاء على وجه الأرض، أو في أفواه الناس.. الشيء الذي يجب عليك أن تحافظ عليه ألا

يصيبه الوهن، أو تؤثّر فيه الأحداث هو روحك القابعة بين جنبيك؛ فهي الشعلة التي يجب أن تبقى متقدة!!..

أنا إلى هذه اللحظات لا أعرف انتصاراً خُطف من فم الواقع البارد.. كلا! وإن وجد فلا يسمى انتصاراً.. وإنما ضربة حظ لا غير! وهل سمعت في التاريخ أن الناس صفقت مبهورة لضربة حظ نالت إنسان على ظهر الأرض؟ وإنما الانتصار الذي ينال إعجاب الناس، ويلوي رقابهم لقراءة ملحمته هو الانتصار الذي يقف صاحبه بعد سقوط، ويقوم بعد عثرة، ويهتف بعد إخفاق.. هذا فقط هو الانتصار الذي يجبرني في لحظة من لحظات العمر أن أصفّق لصاحبه ولو كنت وحيداً!..

هذه الانتصارات بهذا المعنى الكبير حرام على المتشائمين! وعيب أن يكتب التاريخ في صفحاته هذه الأخبار.. وإنما هي فقط للمتفائلين الذين يرون نوراً في الظلام الدامس، ويتحسسون أملاً في الواقع البائس!.

كتب (مانديلا) المناضل عن الحرية، بعد اكتمال سبعة وعشرين عاماً وهو بين قضبان الحديد.. كتب حين عجزت هذه السنون أن تثنيه عن مبدئه، وفشلت في الحيلولة بينه وبين قضيته، كتب بعد وفاء هذه السنين وخروجه إلى عالم الحرية من جديد، كتب يقول: كنت حينذاك مهمّشاً، ولكنني كنت أعلم أنني لن أتخلّى عن المعركة، كنت في بيئة مختلفة وصغيرة حيث الجمهور هو أنفسنا وسجّانونا.. ولكننا نظرنا إلى المعركة داخل المعتقل كصورة للمعركة ككل، فقد كانت هناك في السكن نفس العنصرية خارجه، ونفس الاضطهاد كالذي في خارج السجن.. ولم يدر في خلدي قط أنني لن أخرج من السجن يوماً من الأيام، وكنت أعلم أنه سيجيء اليوم الذي أسير فيه بحرية تحت أشعة الشمس، والعشب تحت قدمي، لأنني إنسان متفائل، وجزء من هذا التفاؤل أن يبقي الإنسان جزءاً من رأسه في اتجاه الشمس، وأن يحرّك قدميه إلى الأمام، وكانت

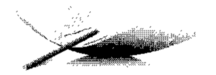
هناك لحظات عديدة مظلمة اختبرت فيها ثقتي بالإنسان بقوة، ولكنني لم أترك نفسي لليأس، فقد كان ذلك يعني الهزيمة والموت. اهـ.

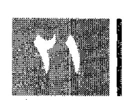
فكيف يقول المؤمن بالله تعالى، وهو يعلم قول نبيه ﷺ : **«واعلم أنما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك»**؟!.. فلله در نفوس الرجال حين تشعل فيها مصابيح التفاؤل لا يقهرها الحديد الذي يكبّل أقدامها، ولا القضبان التي يقف خلفها، ولا الظلام الذي يغشاه طوال زمنه كله.. ليت الإنسان يدري أن الشمس التي غابت أشعتها عن رأسه سترسل شعاعها مرة أخرى ولو طال زمان امتداد السحب، والعشب الذي حرمت قدمه من المشي عليه ستعلوه يوماً ولو طال الانتظار.. المهم في ذلك كله أن يبقى قلبه ومشاعره وروحه تهتف بالحرية التي خُلق لها لا يحوله عنها قضبان سجن كبير، أو قيد متين!!

أما أنا فيكفي عيني في هذه اللحظات دمعها الدافق حسرات على اليائسين! المتشائمين! الراقدين على التراب حزناً على الواقع!. لأن :

وَمَنْ يتهيّب صعود الجبال ... يعش أبد الدهر بين الحفر

قم فحلاوة الدنيا كلها في لحظات انتزاع الانتصارات من أفواه الهزائم!!..





٢١ النجاح رحلة

النجاح رحلة إلى عالم آخر! النجاح رحلة بالنفس أولاً من وهنها وضعفها إلى عالم جديتها وروحها.. النجاح رحلة قد تكون مجهولة في بداية الطريق لكنها معلومة النهايات.. النجاح رحلة من الأشواق والأفراح، وهو في الوقت ذاته رحلة مع العقبات والصعاب والمصائب والأحزان فهو رحلة!!..

النجاح رحلة، والرحلة بحاجة إلى زاد، والزاد زاد من نوع خاص، رحلة النجاح حاجتها إلى زاد الأرواح أكثر من حاجتها إلى زاد الأجساد!

ما أحوج الإنسان في رحلة البحث عن النجاح إلى عون الله تعالى وتوفيقه، وصدق من قال: إننا لو وصلنا الليل بالنهار دأباً، ثم حُرمنا عناية الله تعالى فلن نحصد من تعبنا إلا بواراً. اهـ. وقد قال الأول:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجني عليه اجتهاده

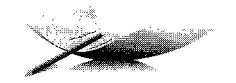
كثيراً ما يكون الإنسان بحاجة إلى فقه هذا المعنى الكبير الذي حرمه كثير من الناس، وهو مبثوث في ثنايا كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وأخبار المصلحين، قال الله تعالى في سورة المزمّل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾

إن هذا التوجيه جاء في سورة المزمّل، وهي من أوائل ما نزل على رسول الله ﷺ، تنزّل قبل أن يتنزّل الأمر بالدعوة، وكانت رسالة إلى رسول الله ﷺ أولاً، وإلى كافة المتطلعين للبناء ثانياً.. رسالة من الله تعالى الذي يعلم طبيعة الإنسان وحاجته إلى هذا الزاد للركض بهذه النفس في ساحات الدنيا يتطلّب بها المعالي.. فلو لم يكن الزاد الروحي بهذه المتانة في بناء الأجساد لما كان هذا التوجيه الرباني في بداية الدعوة! ولو لم يكن كذلك لما استحوذ هذا الزاد على الجزء الأكبر من حياة النبي ﷺ ! وقد بلغك أنه كان يصلي إلى أن تفطّرت قدماه، وجوده أبلغ من الريح المرسلة، وصومه في أيام الحر القائظة عربون وصال، وكان في المجلس الواحد يتجاوز استغفاره وتوبته المئات! وقد بلغك في كتاب ربك ثناؤه على المصلحين بقوله: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣] وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٥] وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠] بل ميراث الأرض كلها لن يكون إلا لأهل الزاد الروحي دون غيرهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وإذا تعلّق عبد بربه، وصدق في توجهه، وأقبل إقبال الراغب على هدفه تنزّلت له الرحمة آخذة بعنان همته، راحلة به إلى آفاق السماء!..

وسطّر شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى أروع معاني هذا الزاد في حياته حين كتب عن حاله تلميذه ابن القيم فقال: رأيته يصلي الفجر في الجماعة، ثم يجلس حتى ينتصف النهار أو يكاد! فسألته: ما هذا يا إمام؟! قال: هذه غدوتي لو لم أتغداها لم تحملني قواي.. قال رحمه الله تعالى وهو يتحدث عن فضائل الذكر: إنه يسهّل الصعب، وييسّر العسير، ويخفّف المشاق، فما ذكر الله تعالى على صعب إلا هان، ولا مشقة إلا خفّت، ولا شدّة إلا زالت، ولا كربة إلا انفرجت... إن الذكر يعطي الذاكر قوة حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يطق فعله

بدونه... قال: وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام في مشيه وكلامه وإقدامه، وكتابته أمراً عجيباً.. قال: وكان يكتب في يوم ما نكتبه في أسبوع، وما يكتبه في جمعة نكتبه في شهر. اهـ. وقد بلغك أنه كتب (الواسطية) مستوفزاً ما بين صلاة الظهر والعصر، وتدرّس اليوم فيما لا يقل عن عامين.. وكتب كتابه (نقض التأسيس) فيما لا يزيد على شهر، وقد حقّق اليوم في الجامعات في ثماني رسائل يصل زمان تحقيقها إلى أربعين عاماً.

وإذا نهل الإنسان من هذه المعاني.. وبدأ رحلته، وسار على الطريق متفائلاً كتب الله تعالى له أن يذوق حلاوتين: حلاوة عاجلة من آثار هذه المعاني الروحية، والتلذّذ بتحقيق آماله على وجه الأرض، وحلاوة آجلة في الدار الآخرة. ولن يستطيع مخذّل صده، ولن تقوى عقبة على الصمود في طريق طموحه.. وقريباً سيرى العالم كله بين يديه أفراحاً بهذه النهايات! قريباً سيشاركه كل من الأرض والسماء أفراحه بالنهايات السعيدة... أوليست الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يطلب... وهكذا يظل النجاح رحلة!..



 عادات الناجحين

الناجحون هم مجموعة من عادات إيجابية.. والعادات هي بعض أسرار الناجحين، لو سألت أي ناجح في حياته، أو قرأت سيرته فحتماً سترى من بين ثنايا تلك السيرة بعض العادات التي داوم عليها فرحلت به ليكتب عالمه بيده، ويخط أثره بقدمه!..

ولن أفيض عبر هذه الأسطر بكل ما يمكن حصره من عادات الناجحين، وإنما سأدلف عليك ببعض هذه العادات، وهي التي ساهمت في تحقيق الناجحين لأمنياتهم في عالم المعالي.

العادات هي بعض أسرار الناجحين، وإذا أردت أن تعرف آثار هذه العادات فاسمع حديثها إليك تقول: إنني صديقتك الدائمة.. إنني أهم من يعاونك أو من يزيد متاعبك.. سأدفعك إلى الأمام أو إلى الفشل.. إنني رهن أمرك تماماً؛ قد تلجأ إليّ لتقوم بنصف الأشياء التي اعتدت القيام بها، وسأعمل على القيام بها بسرعة وبشكل صحيح.. إنني سهلة الانقياد فيجب أن تكون حازماً معي، ويجب أن توجهني لكيفية القيام بالأشياء، وبعد دروس قليلة سأقوم بها تلقائياً.. إنني خادمة لكل الرجال العظماء، وللأسف لكل الفاشلين أيضاً؛ أولئك العظماء أنا من جعلتهم كذلك، وكذلك الفاشلون.. أنا لست آلة، على الرغم من أنني أعمل بنفس الدقة، قد تديرني من أجل الربح، أو تديرني من أجل الدمار فبالنسبة لي

لا فرق عندي!.. خذني، دربني وكن حازماً معي وسأضع العالم تحت قدميك.. كن متساهلاً معي وسأدمرك.اهـ.

أول عادة وهي العمود الفقري في نجاح كل الناجحين على وجه الأرض: **عادة «ابدأ والنهاية في ذهنك»**: هذه العادة هي الوجه الآخر للرؤية.. إن لم تكن هي الرؤية بذاتها.. وقد درج في عرف العقلاء أن كل شيء يصنع مرتين، يصنع أولاً في الذهن، ثم يصنع بعد ذلك في أرض الواقع.. مستقبلك.. حياتك.. تاريخك.. تُكتب أولاً في عالم الخيال.. عالم الرؤية المستقبلية، ويمكنك أن تعيش في عالم الخيال بعضاً من الوقت ثم تكتب تاريخك بعد ذلك على أرض الواقع، ويمكنك أن تتخيّل معي نفسك مرة أخرى..

تخيّل أنك مت، رحلت عن الأرض، ودعت كل من تحب.. تخيّل ساعة رحيلك محمولاً على الأعناق.. في تلك اللحظة بالذات ماذا يمكن أن يقال عنك؟ تُرى ما هي الآثار التي أحدثتها على وجه الأرض تملأ قلبك أفراحاً، وتملأ حياة أمتك نوراً وبهاءً؟!.. زملاؤك، أصدقاؤك ماذا يمكن أن يقولوا عنك في يوم وداعك؟! تأمل ما ذا يقول كل من شارك في توديعك من على وجه الأرض؟ وتأمّل ثانياً وهو الأهم أين أنت من ربك؟ أين أنت من مساحة القيامة هناك؟..

هذه العادة فيها معنى عظيم للغاية، فيها معنى استشراف المستقبل، وصناعة الأمل القادم، وبناء التطلعات قبل حدوثها.. وبهذا كان نبيكم ﷺ ينوء في بدايات الدعوة، فيقول: «**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار..**» هذه هي العادة التي تجعل شمسك مشرقة على الدوام..

العادة الثانية: «المبادرة»: هذه العادة كذلك هي بيت القصيد في حياة الناجحين، ولو لم يكن فيها إلا معنى «أنت مسؤول عن حياتك» نجاحها وفشلها.. تميزها وإخفاقها لكانت كافية في أثرها.. الإنسان المبادر إيجابي للغاية، دائماً ما تجده في مقدمة الصفوف، يطمح للمعالي أكثر من تلمظه من الشكوى، وعتبه على اليائسين!..

الفرص تتهيأ للإنسان في كل لحظة.. وليس المهم أن ندرك أن هذه فرصة، كلا! وإنما حين ندرك أن عظمة الإنسان الحقيقية مخبوءة وراء استثمار هذه الفرصة بمجرد أن تلوح.

الإنسان يعيش في حياته في دائرتين: دائرة هموم، ودائرة تأثير. دائرة الهموم هي الأشياء التي تهمك وتؤثّر في حياتك لكنك لا تملك التأثير فيها، ودائرة التأثير هي الأشياء التي يمكنك أن تؤثّر فيها إيجاباً أو سلباً.. والناجح على وجه الأرض تتسع دائرة تأثيره بصورة ملحوظة، وتقل تبعاً أو تضيق دائرة همومه، الناجح يعمل في الممكن فحسب! ما بين يديه هي أرباحه، وحياته يستنفر فيها قدراته وطاقاته إلى أكبر درجة، ويظل يزحف على دائرة الهموم حتى تتضاءل ثم تتلاشى من حياته بالكلية.

العادة الثالثة: «**الأهم أولاً**».. هذه العادة هي التي ترتّب لك أولوياتك، وتجعلك دائماً في بؤرة التركيز، وتدفعك إلى رؤية النتائج العاجلة.. لا أجد تعبيراً أصدق في هذا المعنى من الصياد الذي يعدو وراء صيده، وكل ما يعرض له في الطريق من الأرانب والغزلان لا يعنيه في شيء، ما بين يديه هو الأهم ولو كان غيره في تلك اللحظة أدعى للإقبال عليه، وحين يصيده ويمسك به يعود فيجد كل ما عرض له أولاً لا زال في قائمة الانتظار!..

جاء أحد الناس بجالون فارغ ثم وضع فيه أحجاراً كبيرة حتى امتلأ، ثم سأل من حوله: هل امتلأ الجالون؟ قالوا: نعم، ثم أخذ حصى صغير ثم أدخله كله، فقال لهم: امتلأ؟ قالوا: نعم، ثم جاء برمل ثم صبه في الجالون حتى استوعبه، فقال لهم: امتلأ؟ قالوا: نعم، ثم جاء بماء فصبه حتى امتلأ كلياً.. ثم قال لمن حوله: وهكذا هي حياتنا إذا ملأناها بالأشياء الكبيرة، والأولويات بقي فيها متسع لتأخذ أشياء كبيرة، وإذا ملأناها مبكراً بالأشياء الصغيرة امتلأت فلا مكان فيها بعد ذلك للأشياء الكبيرة.

وهكذا كان رسولكم ﷺ، قالت عائشة رضي الله عنها: كان ﷺ في مهنة أهله، فإذا سمع النداء خرج إلى الصلاة يردد: «**الصلاة، الصلاة**». وقال عيسى ابن موسى الهاشمي: مكثت ثلاثين سنة أشتهي أن أشارك العامة في أكل الهريس في السوق فلا أقدر على ذلك لأجل البكور إلى أهل الحديث.

وكان ابن الجوزي يستقبل ضيوفه بحزم الأوراق لتقطيعها، والأقلام لبريها. يستعد بهم لأولوياته الأهم.

هذه عادات الناجحين؛ من اقتبسها سلوكاً في حياته أشعلت له قبساً منيراً في طرقاته! ومن تمسّك بها على طريق الحياة الطويل نال وفاءها في القريب.. وقريباً تهتف به وله المعالي.



٢٣ لا تنتظر المركب القادم، تقدّم واركب غيره!!

كثيرون هم أولئك الذين يقفون على الطريق ينتظرون المركب المار ليركبوا معه إلى عالم الحياة.. وهؤلاء تذهب أوقاتهم وهم ينتظرون! وكان الأولى بهم جميعاً أن يتقدموا إلى المركب بأنفسهم ولا ينتظرونه على جنبات الطريق.. إن هذا الانتظار يفسد طعم الحياة الرائع، وإنما تجمل الحياة حقيقة في حق من يخطو خطوات إلى المقدمة.. إن هذه الخطوات تتوقّف عليها أروع لحظات عمر الإنسان.

كثيرون الذين ينتظرون حدثاً غيبياً يغيّر مسار حياتهم، أو مناسبة رائعة تذهب غمهم وأسفهم ثم هم على ذلك الأمل لا زالوا ينتظرون.

إن أعظم مصيبة في تاريخ الإنسان حين يظن أن هناك أشخاصاً بإمكانهم أن يحملوه إلى عالم الأحلام! أو يرفعوه من الوحل الواقع فيه إلى الأرض العالية! وليس من هذا كله شيء! إن الإنسان الوحيد في عالم الدنيا كلها الذي يمكن أن يأخذ بيدك، ويرحل بك إلى عالم الأماني، ويهتف بروحك لتعانق المجد هو أنت لا أحد غيرك.. فلا تكثر من الانتظار.

من الطريف جدّاً في حياة الإنسان أن يملك الرياح التي تعصف بالكون ثم هو يحتاج من يدفعه بضع خطوات إلى الأمام.. ولا زال ينتظر.

خرج إنسان في ليلة من الليالي للترويح عن نفسه، فبينما هو في الطريق إذ

هو برجل آخر يبحث عن شيء أضاعه تحت ضوء أحد المصابيح، فسأله المار عمّ تبحث؟ قال: عن مفتاحي الخاص.. فعرض عليه المساعدة، فرحّب الآخر به، فجثا على ركبتيه يبحث عن المفقود.. وبعد ساعات من البحث قال المار لصاحبه: لقد بحثنا عنه في كل مكان ولم نجده، فهل أنت واثق أنك فقدته في هذا المكان؟ فقال الرجل: كلا! لقد فقدته في المنزل.. قال له: ولم تبحث هنا؟ قال: الإضاءة هنا أفضل.. هنا تحت ضوء المصباح..! وهذه القصة هي ألصق شيء بذلك الإنسان الذي يملك مقومات النجاح ثم لا زال يبحث عن من يأخذ بيده ليطير به في عالم الأشواق! لقد حان الوقت.. فلا تكثر من الانتظار.. التفت إلى نفسك، وأعماق روحك ففيها وحدها المركب الذي تنتظره!..

يمكنك من هذه اللحظة التي تقرأ فيها أسطري هذه أن تقبل على نفسك، وتتخلّى عن مبرراتك، وتكف عن انتظار الآخرين لتبدأ رحلة العمر.. قم فتقدم.. قم لا تنتظر المركب القادم.. قم فاركب غيره.

إن كل شيء تواجهه اليوم في حياتك هو نتيجة للاختيارات التي اخترتها بالأمس.. توقّف هذه اللحظة.. وكف عن لوم الآخرين.. فكل ما بك هو قرار منك مهما كانت أعذارك.. لكن لا عليك توقّف عن اللوم وابدأ مشوارك الآن، ولا عليك من العثرات، والأحلام التي ضاعت في الانتظار يمكنها أن تبدأ الآن وقريباً ستعيشها من جديد.

ما أود أن أذكرك به الآن: توقّف عن اللوم والشكوى؛ فهما وجهان لعملة واحدة، توقّف لتبدأ رحلة اليوم ولا عليك من الأمس؛ لا تلتفت إليه مهما كان قاسياً أو مؤذياً.. توقّف فإن الندب على تلك الأيام أكبر نزيف يواجه روحك ومشاعرك.

لقد علمتنا الحياة أن بإمكاننا أن نصنع أحداث الأمة وليس أحداث حياتنا فحسب! لكن المشكلة تكمن في أننا ندفن هذه الإمكانات في عالم الخوف

والقلق، ونسلّم عقولنا لآخرين يعبثون فيها.. ثم حين نسقط في وحل الواقع المرير نلتفت فلا نراهم.. ومن حقهم أن ينفروا لأن الذي لا يستطيع اتخاذ قراره بنفسه لا يمكن أن يعيد الهاربين عنه.

دعك من هذا.. توقّف مع نفسك هذه اللحظة، واطرح عليها هذا السؤال العريض: تُرى ما الذي خلقت من أجل القيام به؟ ما هي آمالي التي أطمح في صنعها على وجه الأرض؟ سؤال في غاية الأهمية، وإجابته بالذات هي مكمن المستقبل القادم في حياتك الشخصية.

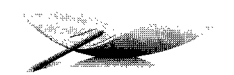
إن هناك هدفاً أو أهدافاً خلقت على وجه الأرض لتحققها فتستنشق عبير نهاياتها الرائعة فتعيش مؤثراً كما أراد الله تعالى لك.. وإذا أردت أن تمعن بصدق في حقيقة هذا السؤال تأمّل حياة الناجحين من حولك.. هم مثلك قذفتهم أرحام الأمهات أطفالاً.. لكن الزمن الفارق بين الولادة والوفاة صنع منهم عالماً آخر على وجه الأرض.. وبإمكانك أن تكون شيئاً.. فقط تأمّل السؤال بصدق، وأجب بدون ضغوط.. إن الإجابة الوحيدة الكفيلة بصنع تاريخك.. وكتابة حياتك بالدقائق هي الإجابة التي تخرج من مشاعر النفس الداخلية.. المشاعر المبنية على القناعات؛ فأنت نسيج شخصك فحسب!..

لعلك تدري حين أؤكّد عليك هذا المعنى بقوة، لأنك حين تستنطق تلك الأهداف من مشاعرك الداخلية حينها فقط يمكن أن تأتي اللحظات التي تعمل فيها ما تحب، وتحب ما تعمل، وهذه بالذات هي التي تصنع الإبداع في حياة أي إنسان.

مشكلة كثير من الناس أنهم يختلقون أهداف الغير لهم، ويبنون مشاريعهم على مشاريع الآخرين، وهؤلاء تأتي عليهم ساعات طويلة يعملون شيئاً لا يحبونه، ثم تأتي النهاية وهم لا شيء.. والحياة التي نصنعها بطريقتنا الخاصة مبنية على الأهداف التي تتوافق مع توجهاتنا ومشاعرنا وآمالنا.. هذه فقط هي التي تصنع المستحيل في عالمنا وعالم الآخرين.

صدقني كثير من المخفقين هم ضحايا التوقّف الكبير في حياتهم.. توقّفت مشاعرهم عن التفكير، ونفوسهم عن التطلع.. ثم في لحظات بنوا حياتهم على حياة الآخرين، واختاروا مشاريع ووظائف هي ليست لهم، لكن إطراء المشروع في أفواه الناس، وقوته في الحياة العامة، وأثر الهدف في ذلك الحين جعلتهم يستسلمون لها فيقررون الصاعقة في نفوسهم كتابة أهداف غيرهم لهم، فلم تكن النهاية مفاجئة لهم بقدر ما كانت الضربة القاضية على حياتهم ومشاعرهم وأرواحهم ومستقبلهم، الإخفاق والفشل.

قبل أن أتركك لتعيد التأمّل في قراءة ما تبعثه أشواق قلبي إليك، في هذه اللحظات أوصيك بوصية القائل: إذا لم تأتك سفينتك إلى الشاطئ.. فاسبح لتلاقيها في البحر، وإذا لم يأتك المركب تقدّم قليلاً إلى الأمام واركب غيره، وإذا ركبت، وتهيأت، فإن بلغك أني حيّ فابعث بأشواقك إليّ فأنا في انتظارها منذ زمن طويل، وإن بلغك رحيلي من الدنيا فاهتف بها في العالمين، وارحل بهم في عالم المعالي.. وسيأتيني في قبري خبر قصتك، ليتك تدري كم هي أفراحي تلك الساعة!! وليت الأرض تنشق لأعانقك بأشواق الأفراح.. فإن لم يكن ذلك فغداً في عالم الجنان لقاؤنا بإذن الله تعالى!



٢٤ حروف من القلب!!

لا أجد في نفسي أعمق معنى من الحب! الحب روح المشاعر ونسيمها العذب! الحب هذه المساحة من القلب إذا امتدت سقت الأرض القاحلة مياه دافقة.. وألقت عليها أروع أنواع الحياة بعد الموت.. الحب البلسم الذي يداوي جروح المتعبين.. ويخفف آلام المحرومين.. الحب إذا عاش في قلب إنسان عاش الإنسان معنى الحياة وذاق طعمها الرائع.. إلى هذه اللحظة التي أدوّن فيها آمالي إليك أيها القارئ الكريم لا أتصوّر مخلوقاً على وجه الأرض خالياً من المشاعر! ولا أتصوّر مخلوقاً محروماً من هذه المعاني!..

الحب الذي مثله الشاعر إقبال بقوله: الحب إذا تجرّد منه إنسان كان صورة من لحم ودم، وإذا تجرّدت منه أمة كانت قطيعاً من غنم، وإذا تجرّد منه كتاب كان حبراً على ورق، وإذا تجرّدت منه عبادة صارت طقساً من الطقوس وهيكلاً بلا روح، وإذا تجرّدت منه مدينة أصبحت تمثالاً لا حقيقة فيه، وإذا تجرّدت منه مدرسة أو نظام تعليم أصبح تقليداً أو تكليفاً لا متعة فيه ولا حافز له! اهـ. فلله درك أيها العلم أدركت فعلاً طعمه وأثره فذهبت تشدو به في عالم الناس.. ليتهم عرفوا منه ما عرفت!

لعلك تسأل: وما علاقة النجاح بالحب؟ وما علاقة الحب بالنجاح؟ فأقول لك: توءمان في بطن واحد، ووجهان لعملة واحدة، ولا أتصوّر ناجحاً لا يعرف معنى الحب!.

هذا المعنى الذي قاله إقبال حقه أن يكون خالداً في أفكار الناس، وحياتهم، وإلا لم يكن للحياة معهم طعم! وهل هذا المعنى إلا الحياة الدافئة الرائعة؟!

إنني لا أتحدّث عن الحب لشخص ما، فهذا الحب منقوص في حياة الناجحين، إنما أتحدّث عن الحب الذي يلتحف كل الناس لا فرق بينهم في معنى الحياة الجميل!..

صدقني أتكلّم عن معنى لو ذاقته القلوب لطفقت تجوب الأرض لا تبالي بعراقيل الدنيا مهما كان حجمها وأثرها.. وسأنقل لك جزءاً من هذا الحب الذي أتحدّث عنه هذا المساء لتنظر كيف كان أثره في حياة الإنسان وهو على أرض الواقع يكتب تاريخه..

كتب أحد الرؤساء الأمريكيين من باريس إلى زوجته في أمريكا عندما كان يقود قوات الحلفاء إبان الحرب العالمية الثانية، كتب يقول: مررت بآثار نوتردام، تلك التي يأتي إليها الناس من كل أنحاء الدنيا، ولم أر فيها شيئاً يستوقفني.. إن مجرّد شعوري بأنك غائبة بعيدة عني أفقدني متعة التطلّع إلى هذا المبنى الأثري القديم. اهـ.

وكتب زعيم إفريقي من باريس إلى زوجته في السنغال، وقد كان سافر إلى العاصمة الفرنسية حاملاً دعوته لاستقلال بلاده.. كتب يقول: ما كدت أنتهي من إلقاء خطابي في نادي الصحافة حتى دوت القاعة بالتصفيق.. لقد نجحت في إقناع المستمعين بعدالة قضية بلادي.. ولكن بُعدك يا عزيزتي عني أفقدني الشعور بلذة النجاح.. إن صورتك لم تغب لحظة واحدة عن مخيلتي طوال الفترة التي استغرقها خطابي.. فصورتك دائماً أمام عيني.. ليتك كنت هنا!! اهـ.

تأمل في هذه اللحظات الرائعة في حياة هؤلاء لم تمنعهم قضاياهم في بلاد الغربة من اللهف إلى زوجاتهم.. إن هذا الحب فقط هو الذي يعطي الحياة طعمها الرائع، وذوقها الدافق..

هذه المساحة من الحب نحتاجها كل لحظة.. ليس للأزواج فحسب! وإنما لكل من نلقاه في ساحات الدنيا.. نسقيهم جرعة الظمآن للماء البارد في يوم صائف!..

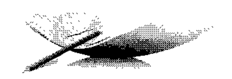
إن العالم اليوم يكتظ بمشاعر الأسى! ويموج بكتل مظلمة من اليأس لم يعد في قلوب الكثيرين مجالاً للحب، وهي هذه اللحظات أحوج ما تكون إلى قلب يهتف لهم بمشاعر الحب ويرفع عنهم ملامة الخطأ..

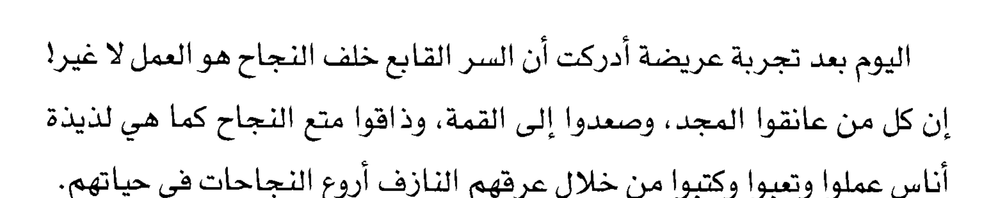
صدقني إن الحياة أفسح من لحظة غضب، أو جرعة غيظ، أو ساعة أسى.. الحياة أفسح ما تكون بقلوب المحبين، وأضيق ما تكون بالأحزان!..

هب أن صديقك ظلمك، أو أن قريبك شتمك، أو أن زميلك غدر بك.. هب أن ذلك حصل في لحظةِ غضب.. يمكن للحب في لحظة من لحظات العمر أن يدمل تلك الجروح، ويدفن تلك المآسي، ويحل في القلب أشجان الحب، وعالم المحبين.. المهم أن تدرك أن لحظات الأحزان هذه تطيف بكل إنسان، لكن مشاعر الحب تنسفها مهما كانت كبيرة أو مؤثّرة!..

ليس المهم أن يكون الإنسان زوجاً أو أخاً أو والداً فحسب! المهم فعلاً أن تمتد مساحة المشاعر الدافئة إلى كل الفقراء الملهوثين! فقراء المشاعر والأحاسيس وليس فقراء الطعام والشراب..

آهٍ على الدنيا إذا لم تكن بهذه المشاعر! آهٍ على الدنيا إذا لم يزيّن عالمها هذه الأسرار والأشجان! آهٍ على الدنيا إذا كانت بهذه المعاني! وحين تترحّل هذه المعاني فلا حسرة ولا مأسوف على فائت!..





٢٥ سر الانتصارات

اليوم بعد تجربة عريضة أدركت أن السر القابع خلف النجاح هو العمل لا غير!
إن كل من عانقوا المجد، وصعدوا إلى القمة، وذاقوا متع النجاح كما هي لذيذة أناس عملوا وتعبوا وكتبوا من خلال عرقهم النازف أروع النجاحات في حياتهم.

لم يكن تميّز هؤلاء الناس أنهم دفعوا أموالاً كثيرة.. كلا! وإنما عملوا أكثر، وجهدوا في سبيل غاياتهم أكثر من غيرهم فعانقهم المجد مجبوراً في ساحات النجاح.

العمل لا غير هو السر الكامن وراء كل المتميزين، أشهد بالله تعالى ثلاثاً أن العمل يصنع شيئاً من لا شيء، وأنه في أحيان كثيرة يركل كل العوائق التي تعترضه، ولا يأبه بها البتة.

إن كل الناجحين الذين مضت ذكرياتهم في أول هذا الكتاب كان السر الكامن وراء تلك النجاحات جملة من التضحيات الكبيرة التي كانت عربون وفاء للأفراح فيما بعد.

الفرق الوحيد بين العاملين هو مقدار العرق النازف من كل واحد منهم.. هذا المقدار بالذات هو الثمن الباهظ الذي يبذله الرجال مهراً لتلك النجاحات في لحظات من أعمارهم، فيتميزون وبفارق كبير جدّاً على غيرهم ممن يشاركهم.

لقد قال (أديسون) بعد جهاد طويل مع النجاح مقالته الشهيرة التي لفظتها

التجربة قبل أن يتفوّه بها، قال: «١٪ إلهام، ٩٩٪ عرق جبين» وهذه الكلمة يحق لها أن يحلّق بها في عالم الروائع، لأنها أصدق تعبير على أسرار الناجحين والمتميزين.

من هنا، في هذه الصفحات بالذات أحدِّثك حديثاً صادقاً، أحدِّثك بالتجربة والبرهان لا بالتخمين والظنون، أحدثك فأقول لك: إذا أردت أن تتقدّم لمقدمة الصفوف وبقوة فائقة، وتكتب اسمك بحروف من ذهب في سطور التاريخ، وتتوسّع لك صفحاته مرغمة؛ فليس عليك سوى زيادة الساعات في التركيز على هدفك، والإصرار على تحقيقه في عالم الأرض.. فإن عملت بوصيتي هذه فقد تكون الخمسة الأعوام القادمة من حياتك هي أروع أيام حياتك كلها.. حين تقف مشدوهاً من ذلك النجاح، وهدفك الذي يعانق الفضاء بالأمس هو بين يديك على الأرض اليوم.

ألم يبلغك أن **الشعبي** رحمه الله تعالى حين سئل: من أين لك هذا العلم كله؟ قال: بنفي الاعتماد، والسير في البلاد، وصبر كصبر الحمار، وبكور كبكور الغراب. اهـ.. وهل خَلّد الشعبي في العقول والقلوب إلا تلك الصفات؟!..

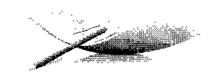
ومثله في ذلك العالم **أبو الوقت السَّجزي**؛ قال تلميذه يوسف بن أحمد الشيرازي: لما رحلت إليه قدّر الله تعالى لي الوصول إليه في آخر بلاد كرمان فسلمت عليه وقبلته، وجلست بين يديه، فقال لي: ما أقدمك هذه البلاد؟ قلت: قصدي إليك، ومعوِّلي بعد الله تعالى عليك، وقد كتبت ما وقع لي من حديثك، وسعيت إليه بقدمي، فقال: ياولدي! تعلم أني رحلت أيضاً لسماع الصحيح ماشياً مع والدي من هَرَاة إلى الداوودي ببوشنج، ولي من العمر دون عشر سنين، فكان والدي يضع على يديّ حجرين، ويقول: احملهما، فكنت من خوفه أحفظهما بيديّ، أمشي وهو يتأملني، فإذا رآني قد عييت أمرني أن أُلقي حجراً واحداً.. فأُلقي ويخف عني، فأمشي إلى أن يتبيّن تعبي، فيقول لي: هل عييت؟ فأخافه

فأقول: «لا»، فيقول: لم تقصّر في المشي؟ فأسرع بين يديه ساعة ثم أعجز فيأخذ الحجر الآخر فيلقيه فأمشي حتى أعطب فحينئذ يأخذني ويحملني، وكنا نلتقي جماعة الفلاحين وغيرهم فيقولون: ياشيخ عيسى ادفع إلينا الطفل نركبه وإياك إلى بوشنج، فيقول والدي: معاذ الله أن نركب في طلب أحاديث رسول الله ﷺ. اهـ.

ولست هنا أسوق هذا لك لأبين لك عن صحة هذا القول من عدمه، كلا! وإنما أريدك أن ترصد الحدث، وتتشوّف إلى هذه الهمة، وترنو خلف هذا الشوق، وهذه الأماني فحسب!..

وهذا **أحمد بن محمد السلفي** رحمه الله تعالى يقول: لي ستون سنة ما رأيت منارة الإسكندرية ـ وكانت من أعاجيب الدنيا السبعة ـ إلاّ من هذه الطاقة، يعني طاقة حجرة المدرسة.. قال الحافظ عبد القادر الرهاوي: بلغني أنه مدة مقامه بالإسكندرية ما خرج إلى بستان، ولا فُرجة غير مرة واحدة، بل كان عامة دهره ملازماً مدرسته، ولا كنا ندخل عليه إلا ونراه مطالعاً في شيء. اهـ.

فهذه بعض أمثلة على أن العمل والجهد والتعب والانضباط والتركيز على الهدف يصنع العجائب على وجه الأرض.. ما رأيت رجلاً يشار إليه بالبنان على ظهر الأرض إلا رجلاً بذل وقتاً أكبر، وعملاً أكثر، وضحى بوقته في سبيل رسالة خالدة، أو هدف دفع به عجلة التاريخ، ثم لمّا كانت هذه التضحيات صفّقت له الدنيا إعجاباً وإجلالاً. ليت شعري لو علم قارئ هذه الأسطر هذه اللحظات آثار العمل في النجاح لما فارق مشروعه لحظة واحدة! فلله در العمل يصنع من العاديين أعلاماً في تاريخ أمتهم!..



 دع القلق وابدأ الحياة

لله ما أروع الحياة بآمالها! وما أجملها بأهدافها! والفارغون على جنباتها هم المتأوهون المرضى من آثارها! صدقني - أيها الإنسان - إن الحياة أفسح مما تظن.. وأكبر بكثير مما تعتقد.. هل ضاق عليكم الأمل حتى صار أشبه ما يكون بثقب إبرة؟! من قال لكم هذا؟ من أقنعكم بدثار المرضى؟ وستور المعاقين على هذه الأرض؟!..

قم - أيها الإنسان - فأنت وليد اليوم الحاضر، فلماذا تستولد الغد وهو لا زال في الغيب الآجل؟ من قال لك: إن أجلك قرب؟ ومن همس في أذنك أن نصيبك الفشل؟ لا الأول يستطيع أن يعرف أجل نفسه، ولا الثاني يمكن أن يعرف قدره! فكيف يتهافتون عليك، كالفراش الذي يتهافت على النار لحتفه؟! إنهم أجهل من يكون بأقدارهم وحياتهم! قم فهؤلاء كذبة، متخرصون، قائلون على الله تعالى بلا علم..

اليوم الذي تعيش فيه لحظتك هذه هو عمرك، وحياتك، وتاريخك! أدعوك هذه اللحظة بالذات أن تقفل أبواب الماضي بكل ما فيها، وتدفع الآن في نفس اللحظة بأبواب الغد عن ناظريك.. عش يومك بأحلامه وآماله وأفراحه! صدقني سعادتك، سر أفراحك، حياة الأمل والأفراح مخبوءة في الحاضر الماثل بين يديك.. أدعوك الآن أن تقفل باب ذكريات الأمس، وباب آمال الغد، وتعيش هذه اللحظات من عمرك.. حينها سترى الآمال أبلغ رسول إلى قلبك.

أدعوك هذه اللحظات أن تخرج من قفص الوهم والوهن.. اخرج إلى عالم لا حدود له، من كبَّلك بهذه الأوهام؟ ومن أغرقك في ذكريات الأمس، وغيب الغد؟ اللحظات الماتعة التي تعيشها الآن هي العالم الذي تبحث عنه، وتجوب الأرض من أجله.. قم فاقرأ حديث رسولك ﷺ : «**واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك! وما أخطأك لم يكن ليصيبك!**» عتاب النفس الذي يحاور روحك من الداخل، ويسوط قلبك بلحظات الندم أقفله الآن.. أتدري كيف تقفله: لا تفكّر فيه، وإذا داهمك فاشرع في مشروعك الذي حدّثتك عنه، واتركه فإنه راحل لا محالة.. إن هذه التي تعيشها مجرد أوهام، ليس إلا! وساوس تحاول قهر مشاعر الأمل.. وصيتي لك هذه اللحظات التي تقرأ فيها هذه الأسطر أن تقم من على سريرك الذي تجلس عليه، قم وانظر إلى هذه المساحات الشاسعة من الدنيا كيف ثقلت عليك حتى حاصرتك في نفسك!..

قم فإخفاقك بالأمس هو التجربة الشجاعة في عالم اليوم! قم فالأمراض التي تداهمك، والمصائب التي تعصف بك هي منح تجرها لك الأقدار.. ألم تسمع حديث رسولك ﷺ : «**ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر الله بها من خطاياه**» قم فتأمل صوت القارئ لحديث رسولك ﷺ وهو يردد: «**يبتلى الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل، يبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان في دينه شدة زيد له في البلاء.. حتى يلقى الله وما عليه خطيئة**».. قم فما هذه الأمراض والأحزان والمصائب والآلام إلا عثرات تقوم بعدها إلى عالم الأفراح.. قم فلو تعلم هذه اللحظات الأقدار التي تنتظرك على صبرك لما وسعتك الدنيا أفراحاً!..

قم من فراشك القابع عليه.. قم فالشمس تشرق، والكون يزهر، وأحلام اليوم أروع بكثير من ذكريات الأمس..

إن عالم الدنيا مهما كان طويلاً هو في النهاية راحل ذاهب.. ولا يعقب الآلام إلا الأفراح! أتدري من المكلوم على وجه الحقيقة؟.. هو الساخط على قدر الله تعالى.. أما المؤمن الراضي بأقدار الله تعالى فلا تسل عن الأفراح التي تعمر قلبه حين رضاه بالقدر، ولا تسل عن الأحلام التي تنتظره في الأجل.

قم فقد بلغك أن المشلول رباعيّاً يجوب الأرض فرحاً بقدر الله تعالى، ثم لا يلوي رقبته البتة إلى مخذّل.. قم فالذين حكم عليهم بالسجن مدى الحياة حولوا السجن إلى ساحات أفراح! وكتبوا في اللحظات المظلمة والليل الداهم أروع أنواع العطاء! قم فالمرضى حقّاً هم مرضى الأرواح والهمم، هؤلاء فقط هم من لا يرجى لهم عافية! ولا تنتظر منهم صارخة!.. دع القلق وابدأ حياتك من جديد!!. إن المصيبة أول ما تحل تأخذ بلب صاحبها فتطيش به وتنسيه واجبها من الصبر، ثم ما تلبث أن تصبح ذكريات رحلت بما فيها، وعند الله تعالى الملتقى.. فلا يفوتنّك أجرها، ولا يذهب عليك طيب آثارها، فالعاقل من أمثالك أوثق ما يكون بالأجور المنتظرة!..

إن كل من تراهم من المكلومين لم تكن المصيبة في حسهم أمس كما هي اليوم! لكنها لحظات البداية قد ينهزم فيها الإنسان ثم لا أجر ولا عودة. رأى النبي ﷺ امرأة تبكي عند القبر، فقال ﷺ : «**اصبري واحتسبي**» فقالت: إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي، ثم قيل لها بعد ذلك: هذا نبي الله ﷺ فأقبلت معتذرة قائلة: لم أعرفك يا رسول الله! فقال ﷺ : «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»

إنني أدعوك هذه اللحظات مهما كانت جراحك ومصيبتك أن تتأمّل في عواقبها من الأجر، وآثارها من الفضل، ثم تقف منها موقف الرجال الذين لا تفوتهم الفرص.. القرار بيدك لا بيد غيرك، وأسى قلبك لن يعود عليك إلا بالأمراض المزمنة، والذكريات المرة! قم ففكّر تفكير الحازم، وانطلق لتخوض تجربتك من جديد!..

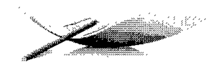
دعني أقول لك: ما ينتظرك من الأحداث أعظم مما وقع لك.. ألم تعلم أنك راحل من الأرض كما رحل غيرك! فلماذا تأسف على فوات حبيب وربك الذي خلقك كتب ذلك، وأسمعك به في كتابه، وبينه لك رسوله ﷺ.. وهل يوجد أفضل من رسول الله ﷺ؟ وقد تجرّعت الأمة غصص رحيله، ومع ذلك واصلت رحلة البناء!..

لقد أخبر رسولك ﷺ أن قدرك مكتوب قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وأخبرك أن يوم ميلادك كتب الملَكُ رزقك وأجلك وشقي أو سعيد؛ فلماذا تضع يدك على مسمعك خشية ألا تسوءك الأحداث؟ لماذا تتوجّس عند رنّة تلفونك في ساعة متأخرة من الليل خشية الأحداث القادم بها الغيب؟ لماذا كلما رأيت حوادث الطرق ارتفعت نبضات قلبك خوفاً ألا يكون من أهلك؟! ألم يصلك بعد قول ربك: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] أم أنك تقرؤها ولا تصدق بها.. أعيذك من ذلك..

قم فقد رأينا أحداثاً وفواجع لا يحتملها إنسان، ورأينا كيف طارت بألباب أصحابها في لحظات، ثم مرت الأيام فإذا بالمكلومين بالأمس أسعد الناس على وجه الأرض اليوم! قم فإن كنت مريضاً أو مكلوماً، أو ذهب أهلك وأصحابك، أو خسرت مالك وحياتك فإن أفراح الآخرة حين تحتسب تدملها كلها وكأنها لم تكن. وفي الحديث: «**يؤتى بأبأس أهل الأرض من أهل الجنة فيغمس غمسة في الجنة فيقال له: «هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك بؤس قط؟ قال: لا والله ما مر بي بؤس قط، وما رأيت بؤساً قط**».

* * *

إضاءة: إيماننا بالقدر هو السكينة التي تلتحف قلوبنا فلا تريعها الأحداث!



٢٧ عش متفائلاً

الحياة كلمة تعج بالأمل، وتشرق بالأنوار، وتهتف بالمعالي، الحياة فيها معنى الحركة، والإنجاز، والأمل، يكفي هذه الكلمة شرفاً أنها عكس الموت، وضد التوقف، وهذه المعاني كافية في الفرح بهذا المعنى، والشوق بآثاره!

في التفاؤل الرضا بقدر الله تعالى، والسكينة بقضائه، والاطمئنان إلى مكتوبه، وهذه المعاني هي الحياة بمعناها الحقيقي، وذوقها الرائق، وبلسمها العذب، فيا لله ما أروعها كلمة! وما أحلاها معنى!..

المتفائل يخطو للأمام لا يتلفت للوراء، يدرك وهو يخطو أن عين الله ترقبه، وحفظه يكلؤه، ومشيئة الله تعالى له أكبر من مشيئته لنفسه.

المتفائل يضحك بملء فيه، لأنه يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن لطف الله تعالى، وعنايته، ورحمته أسكن لقلبه من كل عناية، ورحمة، ولطف من المخلوقين على وجه الأرض.

بالتفاؤل يرى الإنسان شمس الضحى كأروع لحظة! يرى فيها النور، والأمل، والحياة تشرق كأنها لحظة عمر الإنسان فحسب! يرى الفجر وهو يزيح الظلام، ويكشف سواده عن الناس، يرى الفجر وهو يعيد للإنسان نشاطه، وحيويته، وروحه في عالم الأرض من جديد، يكفي هذه اللحظة أملاً انتشار الناس، وبداية حياتهم، ويوم عملهم في عالم الأرض.. هذا المعنى بالذات

أروع ما يتخيله إنسان! وأربح ما يعيش فيه مخلوق! وهل الحياة إلا بسمة في زمن الفجر؟!

ويرى المتفائل كذلك شمس الغروب فيلمح فيها السكينة، والهدوء، ويرى من خلال نورها الخافت معنى الطمأنينة والسكينة، يرى هذه اللحظة بالذات فيرى فيها عود الإنسان إلى بيته، ولقائه بأسرته، وجمع شمله، يرى فيها معنى الاجتماع والألفة، والمحبة تفيء بظلالها من جديد، فيا لله ما أروع الحياة حين يغشاها التفاؤل والأمل! وما أروعها حين يراها الإنسان وهي تمتلئ بهذه المعاني الرائعة!

يكفي التفاؤل والأمل حياة أنه مبثوث في ثنايا القرآن، في غزوة أحد، وفي لحظة انكسار المسلمين، ووداع سبعين من أكابرهم وقادتهم ورجالهم، في يوم رحيل الأبطال والشهداء وكتّاب التاريخ من على وجه الأرض يتنزّل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] في لحظة الهزيمة، ولحظة الانكسار، ولحظة ضعف الإنسان كإنسان تتنزّل الرحمة كأبرد ما يكون! وهل الحياة إلا هذه المعاني الكبيرة في حياة أصحابها! إن الحزن والتشاؤم وضيق الأفق هزائم نفسية.. لا يحق أن تتلو الهزائم الحسية، وإنما ترياق الهزيمة النفسية التفاؤل والأمل فحسب!..

في لحظة صولة العدو، وطيش كبره، ولحظة تفوقه يأتي الأمل والتفاؤل في قول الله تعالى ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨] وفي لحظة يأس الرسل، وإحباطهم، وفتور همتهم يأتي الأمل من جديد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ [يوسف: ١١٠] وفي لحظة انتفاش الباطل، وعلو رأسه يأتي الأمل يطمس معالمه ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧] بل قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء، إن ظن بي خيراً فله، وإن ظن بي شرّاً فله**».

يكفي التفاؤل والأمل حياة أنه هدي رسولنا ﷺ، وحياته، ومنهجه.

بالتفاؤل كان نبيك ﷺ يعيش هذه الحياة، فكان يعجبه الفأل الحسن، حتى قال ﷺ: «**ويعجبني الفأل الصالح الكلمة الحسنة**»..

ولما رأى سهيل بن عمرو في صلح الحديبية أقبل: قال: «**سهل أمركم**».

ولما قدم إلى المدينة ووجدهم يسمونها يثرب، قال: «**بل هي طيبة**».

ولما أصبح في ديار خيبر ورآهم بفؤوسهم ومساحيهم ومكاتلهم استبشر وقال: «**إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**».

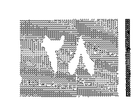
وفي غار حراء وكفار قريش على فم الغار، وهي بين جنبتي الغار مع صاحبه فزع أبو بكر وقال: لو نظر الواحد منهم تحت قدمه لرآنا! فقال ﷺ : «**اثنين الله ثالثهما**».. وهكذا كان ﷺ يعيش معنى الحياة، وروحها، وأملها، وهل هذه إلا بعض معاني الحياة الرائعة؟!..

يكفي التفاؤل أنه النور الذي يتسلل في وسط الظلام، والأمل الذي ينبعث من فم المصيبة، والروح التي تسري في عالم الظلام الدامس...

إن كنت مريضاً، أو مصاباً، فالأمل مخبوء فيما تعانيه، والتفاؤل مدسوس من بين ما تقاسيه! ألم يقل رسولك ﷺ : «**ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يلقى الله وما عليه خطيئة**»..

وإن كنت مكلوماً بفقد قريب أو حبيب ففي الصبر منبع التفاؤل، وفي الحياة إشراقة أمل، ألم يقل رسولك ﷺ : «**ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب ولا هم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر الله بها من خطاياه**»..

وأخيراً: الحياة كلها لحظة أمل، وجرعة تفاؤل، ومساحة حب، تلك المعاني التي جعلت من الحياة كلمة كبيرة لهذه الدرجة! وأنت بنفسك قادر على أن تجرّب هذه المعاني، وتلبس حللها اليوم، وتخرج إلى الحياة كلها وأنت تعيش هذه المعاني الرائعة في حياة المتفائلين...



٢٨ التفت للجهة المقابلة

لله ما أروع صور الحياة! وما أجملها! وما ألذها! تلك الصور التي نرى فيها الأمل أكبر من كل كلمة، وأوسع من كل دائرة، وأعظم من كل مصيبة!..

هذه فحسب لحظات الحياة، وتلك التي أعني ذائقتها الرائعة، وما بين هذه وتلك صور من الأمل والحياة تكاد تطير بالإنسان من عالم الأرض إلى عالم الفضاء!..

إنني هنا أتحدث إلى من أوقف حياته على حدث ما! أتحدث إلى من يرى الأحداث التي عصفت به نهاية الحياة، وخاتمة المطاف! أتحدث هنا إلى من أوقف فسحة الأمل من أن تجتال في قلبه، ورفض كلمة الحياة بإشراقها أن تبث النور في مجرى حياته كلها!..

أتحدث إلى كل إنسان ضاقت به الدنيا، وأدعوه أن يلتفت إلى الجهة المقابلة.. هناك في تلك الجهة أمل مخبوء، هناك فسحة كبيرة المساحات، هناك بالذات رائعة من روائع الحياة تنتظر من يكشف عنها، أو حتى يطوف بقلبه في آثارها..

تقدم فانظر إلى الجهة المقابلة، إن كنت مكلوماً بفقد من تحب فأدعوك أن تلتفت إلى الجهة المقابلة، تلك الجهة فيها قدر الله القائل: ما كل حي باقٍ! أو لا تؤمن بقدر الله تعالى؟! ما رأيك لو لم يمت من تحب ثم بقي مشلولاً لسنوات

طويلة؟! ما رأيك لو لم يمت ثم كان مكبلاً في غياهب السجون في قضايا مخلة بالشرف؟! ما رأيك لو لم يمت ثم كان مريضاً عييت بآثار مرضه وظروفه؟!.. إذاً قدر الله تعالى لك أرحم بك من مشيئتك لنفسك! صدقني لو لم يأت الموت لجاءت أحداث تمنيت أن هؤلاء رحلوا قبل أن تقع بهم، هذا هو قدر الله تعالى، وهذه هي مشيئته النافذة، فهو أرحم بك من الأم بولدها!..

حين تخفق في وظيفة، أو ترسب في امتحان، أو تقع ضحية لقضية فانظر إلى الجهة المقابلة، ففيها شيءٌ مخبوءٌ لم تره هو أقسى بكثير من المصائب والمآسي التي عشتها في مثل هذه اللحظات. فما يدريك أن ربك صرف عنك ذلك كله حتى لا تكون علامة سيئة أو مشهداً منبوذاً في تلك الأماكن التي تمنيت العيش فيها.

بلغ أحد السلف خبر موت ابنه؛ فما زاد على أن قال: قد بلغني ذلك في كتاب الله تعالى:﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وبلغ آخر بتر قدمه، فقال :الحمد لله الذي أخذ عضواً وأبقى الكثير.. وبلغ ثالث مصيبة بأهل بيته فقال: «هذه مشيئة الله، وهذا قدره، فالحمد لله على ما شاء وقدر»..

أعجب شيء في الإنسان أنه يدرك تماماً أنه عرضة للمرض، والبلاء، والفتن ثم لا يستقيم حين تنزل به، وأعجب شيء فيه أنه يعلم أنه مجرد وديعة ثم تخطف لبه المصيبة، وتنفر بعقله الوافر الأحداث!..

إن مات قريبك فقد مات أعظم رسول على وجه الأرض، مات في مشهد لا تحتمله قلوب من ذاق جمال صحبته وروعة محبته، وذهل عمر رضي الله عنه وأخذ سيفه وهو يردد: من قال بأن محمداً قد مات ضربت عنقه، وأخيراً أدرك أنه مات ولم يضرب عنق أحد...

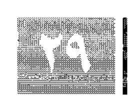
كل ما يمكن أن تراه في نفسك أو أسرتك فعند غيرك أكبر منه بكثير، والفرق يكمن في تذوّق تلك المصيبة والرضا بقدر الله تعالى فيها.

إن الجرح الذي في قدمك يقابله عافية في سائر جوارحك، والمرض الذي أصاب جزءاً من بدنك يقابله سلامة في أكثر حواسك! إن النقطة السوداء تنغمر حتى لا تكاد تبدو في الصفحات البيضاء! وكذلك آلامك، وظروفك مهما كانت قاسية لا تكاد تكون شيئاً في ظل عافية الله تعالى عليك!..

إن أشد ما يقتل الإنسان أنه يظل ينظر في منظره، ويفكر في مصيبته، ويعيش آلامه وظروفه القاسية فحسب! وهذا هو التفكير السلبي بعينه، وتلك هي الأفكار التي تسحق كل معاني الإيجابية مهما كانت كبيرة أو رائعة!..

وأخيراً: حاول دائماً أن تلتفت إلى الجهة المقابلة ففيها شيءٌ مخبوءٌ لو علمته لرضيت بقضاء الله تعالى وقدره، ولما وسعني وإياك غير الإيمان به، والعيش في هذه الحياة عيش السعداء.



 الوهم... المرض الذي لا حقيقة له

الوهم كلمة من ثلاثة أحرف؛ تعني كل معاني الخوف، والفشل، والسقوط..

الوهم كلمة تقتل في كل يوم ملايين البشر على وجه الأرض.. وهي في الحقيقة كذبة لا حقيقة لها، وكلمة لا معنى لها، وجسد لا روح فيه.. فهي لا تعدو أن تكون حيّزاً نفسيّاً لا مكان له على أرض الواقع!..

الوهم كلمة أشد خطراً من أعتى الأمراض الجسدية اليوم على وجه الأرض، ذلك أن المرض الجسدي يميت صاحبه مرة، والوهم يميته ملايين المرات!..

الوهم يجعل من الإنسان آلة يصرعها متى شاء، وكيفما شاء.. الوهم لا يعدو أن يكون مجرد وهم...

الوهم مرض ينبت في جوف العقل، ويعيش في بحبوحة الدماغ، هذه هي أماكنه التي يتوالد فيها فحسب!..

كثيرون اليوم على مسرح الحياة مرضهم الوهم، وسر إخفاقهم الوهم، وبقاؤهم مشردين في عالم الحياة الوهم... هذا هو مرض الملايين من البشر، وللأسف لا يعدو أن يكون مجرد وهم! كل الذين تراهم أخفقوا في دراسة، أو رسبوا في مشروع، أو لم يحاولوا بعدُ هم مجرد مرضى على ساحة الحياة، ومرضهم هو الوهم...

مع أن هذا المرض مجرد وهم إلا أن نتائجه حقائق مفجعة، وكوارث كبيرة،

ونوازل لا يحتملها الإنسان لعمق آثارها، وفجيعة نهايتها، إن نتائج هذا المرض في غياهب السجون أكثر من أن تكون في ساحات الحرية..

إن هذا المرض لا يقبل العلاج في كل مصحات العالم، ولا يسمح بدخول المريض في أحضان المستشفيات، ذلك أنه مرض لا يقبل العلاج البتة، ولا يستجيب لأي مؤثرات مهما كانت كبيرة، ذلك لأنه لا يعدو أن يكون وهماً!..

لقد قال أعظم محارب هندي في مذكراته: إن كل قلق الهنود وتعاستهم تأتي غالباً من مخيلتهم وليس من الواقع! اهـ. وقال آخر: إن العقل في مكانه وبنفسه يستطيع أن يجعل الجنة جحيماً، والجحيم جنة! اهـ. وصدق فالعقول التي تحتضن الوهم تحول النعيم إلى صحراء جرداء من كل مظاهر النعمة أو مباهج الحياة!..

إن الأفكار السلبية، والأوهام الكاذبة أكثر الأمراض خطورة على عقلية الإنسان، وعلاجها أهم بكثير من علاج الأمراض التي تعرض لأجسادنا!..

كثيرون أولئك الناس الذين يقضُّ مضاجعهم مرض جسدي فينفقون في علاجه آلاف الريالات، ولا يهنأ الواحد منهم بطعم الحياة حتى يطمئن على صحته وعافيته، وكثيرون كذلك مرضى بالوهم، ولا يكلّف الواحد منهم نفسه مجرد التفكير لعلاج هذا المرض، أو التفكير في القضاء عليه. أليست هذه هي الخسارة الفادحة في حياة الإنسان على وجه الحقيقة؟!..

إن كل القاعدين عن المحاولة، واليائسين من الطريق، والمخفقين في ساحة العمل هم مرضى لهذا الوهم، وهم بحاجة اليوم قبل الغد إلى العلاج الفوري، والعاجل لفكاك حريتهم من رق الوهم.

لا أجد في حياتي أشبه بالواهم في حياته إلا ممن صلب نفسه على الطريق ثم طلب من الناس أن يفكوا قيده، وما أن يفعل الناس حتى يعود إلى صلب نفسه، وهكذا لا يزال في رق الوهم خوفاً من أخطار المحاولة، ومجازفة الحرية.

إن ثمة علاج واحد كفيل بإذن الله تعالى بعلاج هؤلاء المرضى، وعلاجهم يكمن في حريتهم، وفي محاولتهم، وفي إعادة الكرة مهما كانت سابقتها خاسرة أو مكلفة! إن أعظم كلمة تقال في هذا السياق: «إن الحياة محاولة جريئة أو لا شيء» وقيمة المرء تكمن في اعتناق حريته، وفسح الأمل لآماله وطموحاته، والركض في عالم الدنيا لاعتناق هذه المبادئ كفيل بإذن الله تعالى في العلاج الذي يقضي على كل الأوهام..

وهل الإنسان إلا بحريته؟! وهل هو إلا بآماله وطموحاته؟! وهل الحياة كلها سوى مغامرة جريئة تعطي الإنسان بعضاً من معاني حياته العريضة؟! هذه الحياة عندي فحسب! والقاعد الخائف من السقوط لم يدرِ بعد أنه كل يوم يمضي من حياته ينزل درجة في عالم الظلمات!..



٣٠ مِنَح الفرص

الحياة كلها عبارة عن فرصة سانحة، وقيمة الحياة كلها في التقاط تلك الفرصة من بين أعين الناظرين إليها.. إن كل النجاحات التي تراها قميصاً لكثير من الناجحين هي لا تعدو أن تكون فرصة سنحت في وقت ما فالتقطها أولئك الرجال فصارت بهم إلى عالم النجاح والحياة والأمل.

إن الفرصة أكبر بكثير مما نتخيّل، لكن مشكلتها الحقيقية أنها تأتي في لحاف العمل، فيرى الناظر هذا الجلباب الذي تلتحف به فيتركها خوفاً مما تحمل من مشاق وآثار.. ولم يعلم بعد أن هذا السرّ فيها هو طعمها الزاكي، وروحها الرائعة!..

الفرصة فحسب هي التي أوصلت عكاشة إلى معانقة الجنان دون حساب أو عقاب، حين قال النبي ﷺ: «**يدخل الجنة سبعون ألفاً بلا حساب ولا عقاب**»، قال: ادع الله أن أكون منهم يا رسول الله! قال: «**أنت منهم**» فقام الآخر يردد ما قال عكاشة، فقال: «**سبقك بها عكاشة**»!..

الفرصة حين تسنح لا يتركها العاقل، بل يهتبلها اهتبال الفاقد لضيعته حين يراها بعد سنين..

إن الفرصة يصنعها الإنسان لنفسه لا ينتظرها حتى تأتي، فإن لم يتمكّن من صناعتها وأتت في لحظة من اللحظات على غير ميعاد لم يتركها، أو حتى لا يدع لها فرصة للفوات، وقد بلغك قصة عجوز بني إسرائيل التي قال فيها ﷺ :

«**أعجزتم أن تكونوا مثل عجوز بني إسرائيل**»! فقال أصحابه: يا رسول الله! وما عجوز بني إسرائيل؟ قال: «**إن موسى لما سار ببني إسرائيل من مصر؛ ضلوا الطريق، فقال: ما هذا؟ فقال علماؤهم: نحن نحدثك: إن يوسف لما حضره الموت؛ أخذ علينا موثقاً من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا. قال فمن يعلم موضع قبره؟ قالوا: والله: ما ندري أين قبر يوسف إلا عجوز من بني إسرائيل، فبعث إليها فأتته فقال: دلوني على قبر يوسف. قالت: لا والله؛ لا أفعل» حتى تعطيني حكمي. قال: وما حكمك؟ قالت: أكون معك في الجنة. فكره أن يعطيها ذلك، فأوحى الله إليه أن أعطها حكمها فانطلقت بهم إلى بحيرة؛ (موضع مستنقع ماء) فقالت: أنضبوا هذا الماء، فأنضبوا. قالت: احفروا واستخرجوا عظام يوسف. فلما أقلوها إلى الأرض؛ إذا الطريق مثل ضوء النهار**». رواه ابن حبان وصححه الألباني.

لقد جاءت الفرصة إلى هذه العجوز فسمت همتها إلى اقتناصها، ولم تتوانَ في تحصيلها، وبموقف واحد وصلت إلى الأمنية التي يركض أمم الأرض منذ وجدوا على ظهر هذه الأرض إلى يوم القيامة.

إن أجمل شيء في الإنسان أن تجده يتلفّت لأمثال هذه الفرص، وما إن يجدها حتى يكتب بها أروع معاني حياته في هذه الدنيا!..

إن الفرص كثيرة جداً، لكنها كما قال الأول لا تأتي إلا في لحاف العمل، ولهذا المعنى فقط يزهد فيها كثير من الناس، ولو أن الإنسان رتّب نفسه على أن يلتقط كل فرصة سانحة لكتب الله تعالى له معانقة المجد على ظهر هذه الدنيا قبل معانقة الحور في الجنان!..

أعجب قصة في انتهاز الفرصة تلك التي ترجمها الصحابي الجليل خزيمة ابن ثابت في زمن النبي ﷺ، حين باع أعرابي فرساً لرسول الله ﷺ ثم أنكر الأعرابي البيع، ولم يُشهد النبي ﷺ في تلك البيعة أحداً فأقبل خزيمة بن ثابت رضي الله عنه فقال:

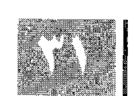
أنا أشهد يا رسول الله أنك اشتريته منه! فقال الأعرابي أتشهد ولم تحضرنا؟ وقال له النبي ﷺ : «**أشهدتنا؟**» قال: لا يارسول الله، ولكن علمت أنك اشتريته، أفأصدقك بما جئت به من عند الله ولا أصدقك على بيعة هذا الفرس! فعجب له النبي ﷺ وقال: «**ياخزيمة شهادتك بشهادة رجلين!**». وهل الحياة كلها إلا أمثال هذه الفرص؟!..

إن قيمة الحياة كلها تكمن في فرصة مخبوءة، والذي يستطيع أن يلمح هذه الفرصة بالذات يستطيع أن يحلّق بنفسه في عالم الناجحين على وجه هذه الأرض.. أليس النجاح الذي عانقه غلام الأخدود سوى فرصة لاحت فاستثمرها فتحقق له ما يريد، لقد كانت الفرصة التي لاحت لغلام الأخدود في ثوب المغامرة، والموت، والنهاية؛ لكنها كانت هي الفرصة بذاتها حين قال للملك الذي يريد قتله، وينكر ربه، وبين تلك الجموع الغفيرة التي تنتظر تلك النهاية: إذا كنت تريد قتلي فخذ سهماً من كنانتي ثم انصبني على جذع شجرة ثم قل: «بسم الله رب الغلام»، ففعل ذلك الملك، وقال: «بسم الله رب الغلام» وأطلق ذلك السهم، وودع الدنيا ذلك الشاب، وكانت الفرصة التي لا مثيل لها، كل تلك الجموع قالت بلسان واحد.. «آمنا برب الغلام».. وهل هذه إلا الفرصة التي يبحث عنها ذلك الغلام المؤمن؟! فطاش الملك بخبر هذه الشهادة، وذهب يحفر الأخاديد، ويرمي هؤلاء في حفر النار، ونسي أن ذلك كله لا ينفع أمام تلك الفرصة التي عانقها الشاب وهي في لحاف الرحيل من على وجه الأرض. وهل الحياة كلها إلا هذا المعنى العظيم الكامن في نفوس أصحابه؟!..

* * *

خاطرة: الفرصة قد تأتي متدثّرة في لحاف العمل والتعب والمشقة، لكنها سرعان ما تقشع لحافها، وتدثّر صاحبها بالأفراح!

* * *

 الحقيقة المفقودة!!

كل من تراه على وجه الأرض يبحث عن تلك الحقيقة في عالم الأرض! كل من تراه يبحث عن ذلك المفقود، ويجهد في الوصول إليه... قد يكون ذلك الباحث ملكاً، أو زوجاً، أو دارساً، رجلاً أو امرأة، كل هؤلاء وغيرهم من الناس على اختلاف وضعهم ومسؤولياتهم، وظروف حياتهم يبحثون عن الحقيقة في حياتهم.. وأنت أيها القارئ لهذه الأسطر في هذه الساعة أجزم أنك تبحث عن هذه الحقيقة...

السعادة هي تلك الحقيقة التي يجهد من أجلها الملايين! السعادة هي ذلك الكنز الضائع إلى هذه اللحظة في نفوس كثير من الباحثين عنه.. السعادة الحلم والحياة والمعنى المخبوء الذي لا زال قيد البحث والمحاولة...

السعادة يبحث عنها أناس في ملك دولة، ويبحث عنها آخرون في زواج جميلة، ويبحث عنها ثالث في مال يملأ عليه بصره وقلبه، ويبحث عنها رابع في وظيفة أو سيارة أو حلم من أحلام هذه الحياة! المهم أن الناس يبحثون عنها بحث الفاقد عن مجهول سمعوا به ولم يدركوا بعد كيف يصلون إليه؟ وكيف يتحقق لهم؟..

وهذه الأسطر التي يخطها قلمي هذه الساعة فيها أحلامهم، وحياتهم، وأمانيهم! أما إني أكتب هذه اللحظات وقد وجدت تلك الأماني التي يبحث عنها أصحابها، وجدتها في مسرح الحياة وليس في خبايا زواياها... ولذلك أرجو من

كل من يبحث هذا المساء عن هذا الحلم أن يتوقّف هذه اللحظة، ويقرأ أسطري هذه فقد وجدت حلمهم، وكنزهم، وأملهم، وحياتهم، وسأرويها لهم مفصلة في ثنايا هذه الصفحات..

السعادة وأحلامك التي تبحث عنها وجدتها في حروف كلمة «الإيمان» هنا في هذه الكلمة بالذات الحياة مخبوءة، وهنا في هذه الكلمة بالذات الأحلام راقدة، وهنا في هذه الكلمة بالذات الأماني بين يديك..

السعادة لا تعدو أن تكون ممارسة عملية لأحكام هذه الشريعة، بمعنى أقرب أن تكون عبداً لله تعالى في حياتك كلها، هذا المعنى بالذات هو الشيء الممكن الذي يجعلك تذوق للحياة معنى آخر، وتهتف بك الحياة في عالم الأفراح..

بلغني كما بلغك أن رسولك ﷺ قال: «**ثلاث من كنّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان.. وذكر منها: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**» فيا لله أي حلاوة هذه التي يتحدث عنها رسولنا ﷺ؟!.

وإني والله أقسم يميناً مغلّظة أن بين طيات هذه الكلمة معنى غير الذي يعرفه الناس، وسرّاً مكنوناً غير الذي كشفه الناس! هذا المعنى بذاته هو الذي يذيقك جرعات الحياة الحقيقية، وأمل النفس الرائقة. إن لم تصدقني بعد فذلك قول ربك، وتلك شهادته: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] ..

هذا المعنى بالذات هو الذي هتف بالحسن البصري، فكتب وهو يتحدث عن هذه السعادة قائلاً: «والله لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من السعادة لجالدونا عليه بالسيوف».. وهل الحياة إلا عيش هذه المعاني بذاتها؟!.. وذات المعنى هو الذي جعل أبا سليمان الداراني يقول: «والله إنها لتمر بالقلب ساعات يرقص فيها القلب طرباً من ذكر الله، فأقول: إن كان أهل الجنة في مثل ما نحن فيه إنهم لفي عيش طيب»..

وذات المعنى هي التي جعلت ذلك الرجل يدخل على صديقه فيجده يبكي، فيسأله عن سر بكائه، فلا يسعه إلا أن يقول «ذكرت ما منّ الله تعالى به عليّ من الاستقامة حتى أبكاني»..

هذه هي السعادة التي يبحث عنها كل من تراهم على وجه الأرض.. لكن مع كل أسف لم يجدوها بعد! أو قل لم يدركوا طريقها بعد! لا زالوا تائهين، لا زالوا يبحثون في أمور مظنونة لم يصلوا لليقين بعد.

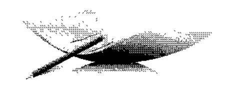
إن طريق السعادة أوضح من الشمس في رابعة النهار، لكن الكثيرين يتنكّبون هذا الطريق ظنّاً منهم بمشقته، ووهماً منهم أنه يحرمهم بعض لذائذهم، فهم لا زالوا تائهين يبحثون عن ذلك الضائع في درب الحياة الطويل...

ولا يسعني في هذا المقام وأنا أخط آخر سطور هذا الكتاب إلا أن أدعوك للتجربة، أدعوك لتذوق معنى الحياة الحقيقي! أدعوك هذه اللحظة أن تجرّب طريقاً محفوفاً بالآمال والأحلام.. أدعوك لأن تذوق كأسها البارد، وأحلامها الرائعة، ونعيمها الدائم... صدقني إنني أحبك، هاك ما في يدي من أحلام! هاك عمرك الحقيقي، وتاريخك المكتوب، وجنتك المفقودة.. خذ من يدي كل هذه الآمال والأحلام، تقدّم إليّ ما لي أراك جباناً؟!! والله إنّي لأحبك.. في يدي أملك وحلمك وتاريخك وحياتك بكل رسومها القادمة على ظهر الأرض.. أقبل إليّ، أرجوك ألاّ تتردد.. أرجوك ألا تخاف.. جرّب فحسب! إنني لا أريد إلا أن أنقذك هذه اللحظة من آلام قلبك المخبوءة في الإعراض عن ذكر ربك ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤] هات يديك فهذه آخر أسطري بين عينيك... أدعوك أن تحمل تلك الكلمة..

«الإيمان» في قلبك، خذها معك، قلّبها ففي حروفها نعيم منتظر، وسر مجهول، وحياة قد لا تتصوّرها... خذها يكفيها آجلاً أنها تضمن لك رؤية ربك، ولقاء نبيك، والعيش في عالم الجنان.. خذها ففيها عاجلاً قبل ذلك الآجل

الشعور بالأمن، والطمأنينة، والراحة، والسكينة، والعيش في أرحب أمل، وأفسح حياة!!..

جرّب فقط فإن وجدت ما وعدتك فأرجوك أن تهاتفني في ساعة من ليل أو نهار، أقمني من نومي، خذني من على فراشي، وارحل بي معك في عالم الأشواق والأحلام، خذني إلى حيثما تريد.. إلى جنان الدنيا، وأفراحها، وآمالها وطموحاتها فإنني أعذرك في كل ما تجد، وأعذرك في كل ما تقول لأن أحلام هذه الكلمة لا يتصوّرها إلا من ذاقها وعرف أسرارها.. وإن لم تجد ما وعدتك به فلا تثريب عليك أن تسفك دمي لأنني أعقتك زمناً من عمرك عن أحلامك وأمانيك... وغداً في عرصات القيامة سترى الحقيقة أوضح من كل بيان!!





الفهرس